



مطبوعات المؤسسة
(١)

الطريق إلى التوكل على الله



تأليف
د. عبد الله بن صالح الكنهل

الطبعة الثانية

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

الطريق إلى التوكل على الله

د. عبدالله بن صالح الكنهل



المملكة العربية السعودية - الرياض

الدائري الشرقي - مخرج (١٤)

هاتف : (٠١١٢٥٤٢٢٢٣)

جوال/ (٠٠٩٦٦٥٤٧٣٣٧٦٧٩)

@rwad_Alalm : رواد العلم الوقفية .

رقم حساب المؤسسة للتوزيع الخيري:

مصرف الراجحي : (Sa ٢٢٨٠٠٠٠٥٢١٦٠٨٠١٠٢١٩٩٨٨)

ح/ عبدالله صالح الكنهل، ١٤٣٦هـ.

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الكنهل، عبدالله صالح

الطريق إلى التوكل على الله./ عبدالله صالح الكنهل - الرياض، ١٤٣٦هـ. ٩٦ ص؛ ١٧سم×٢٤سم

ردمك: ٥-١-٦٦٠١-٠١-٦٠٣-٩٧٨

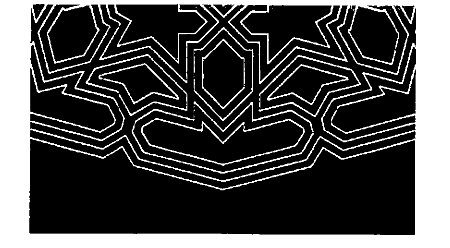
١-التوكل ٢- الإيمان (الإسلام) أ.العنوان.

ديوي ٢٤٠ ١٤٣٦/٣٤

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٣٤

ردمك: ٥-١-٦٦٠١-٠١-٦٠٣-٩٧٨


بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

فإن التوكل على الله قوة عند الملمات، وعدة في النائبات، وثبات على الحق أمام التحديات.

وهو للمؤمن جنة عاجلة، وغنيمة سانحة، وطمأنينة وارفة، هو الحصن الذي من دخله لا يخشى، ومن لاذ به لا يشقى، ومن اعتصم به كفاه المولى.

إن القليل من العمل واليسير من الجهد مع التوكل والإخلاص يانع الثمار كثير البركات.

وإن أمة الإسلام اليوم وهي تعاني الضعف وتسلط الأعداء وكثرة الفتن بأمس الحاجة إلى التوكل على الله.

وآيات الكتاب العزيز تبين أنه لا نجاة ولا نصر ولا عز

للأمة، إلا بالتوكل على المولى النصير. ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[آل عمران : ١٦٠].

إنه نصر للأمة وإن ضعفت، وغنى لها وإن عالت، وثبات على الهدى رغم كيد المنافقين ومكر الكافرين.

الرعاة والرعية، والقادة والعامة كلهم مفتقرون إلى التوكل على الله صلاحاً لأنفسهم، وقياماً بما هم مؤتمنون عليه.

إن الدنيا دار ابتلاء، إن أضحكت أبكت، وإن أقبلت أدبرت، لا تصفو إلا على كدر، ولا تعمر إلا على خراب.

والإنسان فيها عرضة للنكبات، وغرض لسهام البليات، وما لم يكن عنده ركن وثيق يلوذ به، فإنه سيتقطع قلبه حسرات على ما أصابه أو على الفوات.

إنه ضعيف لكنه قوي بالله، وعاجز إلا إن أعانه الله، وضال إلا إن هداه الله، ولا حول له ولا قوة إلا بالله.

وما يعيشه كثير من الناس اليوم من قلق وآلام نفسية؛ من أسبابه: انصراف القلوب عن وظائفها التي خلقت لها،

فصليت بنار هموم الدنيا، ولم تطعم برد اليقين والرضا والتوكل.

ومن لم يدخل تلك الجنة العاجلة في الدنيا يخشى عليه ألا يدخل الجنة الآجلة في الآخرة ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾[الشعراء ٨٨، ٨٩].

ولكن التوكل على الله ليس كلمة تقال باللسان، بل هو عمل قلبي ينشأ من المعرفة بالله واليقين بكفايته، يعتمد فيه المؤمن على ربه، واثقاً به مفوضاً أمره إليه، راضياً بحسن تدبيره له. وليس كافياً في تحقيق التوكل العلم به، وذلك (أن العلم بالشيء غير وجوده والاتصاف به، فكم من إنسان يعلم ويعرف المحبة وأحكامها وجميع لوازمها، ولكن قلبه خال منها، وكم من عبد يعرف ويعترف بقضاء الله وقدره، وحسن كفايته، ولكنه إذا وقع المقدور بخلاف ما يحب رأيته مضطرباً لا طمأنينة عنده ولا ثقة ولا سكون، وإلا فمن وصلت إلى قلبه معرفة الله حقيقة، اطمأن إلى كفاية الله، واستسلم لحكمه حيثما تنقلت به الأحوال)[1].

١- مجمع الفوائد لابن سعدي ص٣٠، ٣١.

هذا وإن من يقرأ القرآن الكريم يجد احتفاء بذكر التوكل في آيات كثيرة، بأساليب متنوعة، مما يدل على عظم مكانته، وشدة الحاجة إليه.

ولهذا جاءت الرغبة في تأليف هذا الكتاب بعنوان (الطريق إلى التوكل على الله)، ولم يكن القصد من تأليفه أن يكون بحثاً شاملاً في موضوع التوكل، بل كان القصد أن يكون معيناً لقارئه على تحقيق التوكل على الله، كما يفيد ذلك عنوانه، وقد جعلته مشتملاً على عشرة مباحث:

المبحث الأول: حقيقة التوكل على الله.

المبحث الثاني: توحيد التوكل.

المبحث الثالث: منزلة التوكل على الله.

المبحث الرابع: حكم التوكل على الله.

المبحث الخامس: فضل التوكل على الله.

المبحث السادس: التوكل والهداية.

المبحث السابع: مجالات التوكل على الله.

المبحث الثامن: أسباب تحقيق التوكل على الله.

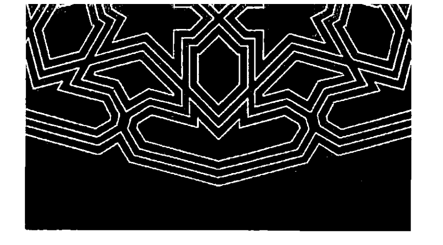
المبحث التاسع: ثمرات التوكل على الله.

المبحث العاشر: من قصص المتوكلين.

أسأل الله أن ينفع به كاتبه، وقارئيه وأن يصلح قلوبنا وأعمالنا، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا ولا إلى أحد سواه، إنه نعم المولى ونعم الوكيل، والحمد لله رب العالمين.

عبد الله بن صالح بن عبد الرحمن الكنهل

alkenhel@hotmail.com



المبحث الأول

حقيقة التوكل على الله

التوكل على الله عمل قلبي ينشأ من معرفة الرب وصفاته، يوجب ثقة القلب به واعتماده عليه في تحصيل المنافع ودفع المضار[1].

ومن خلال هذا التعريف يتبين أن التوكل يقوم على أساس معرفة الربِّ وصفاته، وينبني على ذلك عملان:

الأول: الثقة في الله عز وجل.

الثاني: اعتماد القلب عليه.

والعبد قد يثق بالواحد من الناس، لكنه لا يعتمد عليه في

١- انظر: مدارج السالكين ٢/ ٦٤ - ٨٦، ١/ ٥٩، القول المفيد ٢/ ١٨٥.

أموره؛ لاستغنائه عنه.

وقد يعتمد عليه مع عدم ثقته به؛ لحاجته إليه، وعدم من يقوم مقامه[1].

والثقة بالله تقوم على معرفة العبد ربه وعموم قدرته، وكفايته من توكل عليه.

ومن ذلك إحسان الظن بالله؛ لثقة العبد بسعة رحمة ربه، وعموم مغفرته، وعظم جوده وكرمه.

ومما تقتضيه الثقة بالله؛ تفويض العبد أموره إليه؛ ليقينه بحكمته وحسن تدبيره وسعة علمه. والتفويض هو روح التوكل ولبه وحقيقته[2].

(فالتوكل علم وعمل: فالعلم معرفة القلب بتوحيد الله بالنفع والضر، وعامة المؤمنين تعلم ذلك.

والعمل هو ثقة القلب بالله وفراغه عن كل ما سواه، وهذا عزيز، ويختص به خواص المؤمنين).[3]

١- انظر: مدارج السالكين ١/ ٥٩.

٢- انظر: مدارج السالكين ٢/ ٨٩، ٩٠.

٣- لطائف المعارف لابن رجب ص ١٤١.

والتوكل على الله لا ينافي الأخذ بالأسباب المباحة أو المشروعة.

لكن على العبد ألا يعلق قلبه بها، ولا يجعل اعتماده عليها، بل يباشرها بجوارحه معتقداً أنها أسباب لا تضر بنفسها ولا تنفع، ولا تعطي ولا تمنع، وإنما النافع الضار، والمعطي المانع هو الله، فيكون القلب معتمداً على الله مع تعاطيه تلك الأسباب.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى حينما قال: (احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز)[1].(فأمره بالحرص على الأسباب والاستعانة بالمسبب، ونهاه عن العجز، وهو نوعان: تقصير في الأسباب وعدم الحرص عليها، وتقصير في الاستعانة بالله وترك تجريدها، فالدين كله ظاهره وباطنه شرائعه وحقائقه تحت هذه الكلمات النبوية)[2].

١- جزء من حديث رواه مسلم في صحيحه (ح/ ٢٦٦٤).

٢- مدارج السالكين ٢/ ٣٦٤.

وتوكيل الأشخاص في الأعمال لا ينافي التوكل على الله، (والوكالة الجائزة أن يوكل الإنسان في فعل يقدر عليه، فيحصل للموكِّل بذلك بعض مطلوبه، فأما مطالبه كلها فلا يقدر عليها إلا الله، وذلك الذي يوكله لا يفعل شيئاً إلا بمشيئة الله عز وجل وقدرته، فليس له أن يتوكل عليه وإن وكله، بل يعتمد على الله في تيسير ما وكله فيه)[1].

هذا وإن التوكل على الله أعظم سبب يحصل به مقصود العبد، ويقترن هذا السبب في أدعية قرآنية بسبب آخر، وهو الدعاء، فإذا أخذ العبد بالسببين، فقد أفلح، وحقق الاستعانة بالله.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٤، ٥]. ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

١- جامع الرسائل لابن تيمية - القسم الأول ص٨٩.

﴿ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يونس: ٨٥- ٨٦].

ومع أن التوكل في الأصل عمل قلبي إلا أنه يشرع التلفظ به، مع عقد القلب عليه، كما في قوله: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[يونس: ٨٤-٨٥].

فقالوه لفظاً عاقدين القلب عليه.

وقد جاء التلفظ بذلك في دعاء إبراهيم والمؤمنين معه ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[الممتحنة: ٤].

وأمر الله نبيه بالتلفظ به في محاجة المعرضين ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[التوبة: ١٢٩].

وجاء في مخاطبة الأنبياء لقومهم: ﴿ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾[يونس: ٧١].

﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٦]

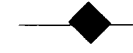
وجاء في السنة التلفظ به في أحاديث سيأتي ذكر طرف منها إن شاء الله.

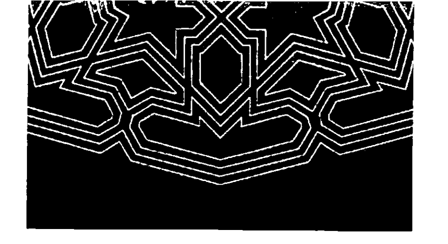
وفي هذا التلفظ فوائد:

١- تذكير للنفس ولمن يسمع وإظهار للمعروف.

٢- عهد بين العبد وبين ربه المطلع على قلبه، فالمؤمن إذا تلفظ بالتوكل حرص على أن يكون ما في قلبه موافقاً للفظه.

٣- إظهار لقوة المؤمن أمام أعدائه، وأنه يستند إلى قوة رب العرش العظيم، فلا مطمع لهم فيه، ما دام معتمداً على ربه وربهم، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها.





المبحث الثاني

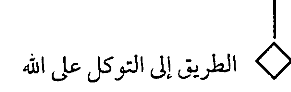
توحيد التوكل

توحيد الألوهية يقتضي إفراد الله بالتوكل؛ إذ التوكل عبادة لا تكون إلا لله. فمن دلالات لا إله إلا الله، لا أتوكل إلا على الله.

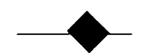
﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [التغابن: ١٣] وتقديم «على الله» وهو الغالب في القرآن عند ذكر التوكل يقتضي حصر التوكل وقصره على الله.

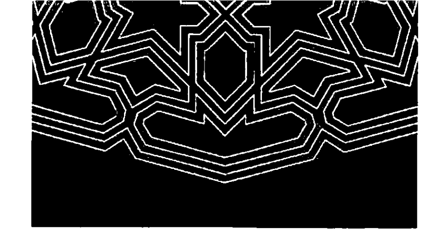
﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [التوبة: ١٢٩]

والله هو المألوه تعبداً ذلاً وتعظيماً ومحبة له، فلا يصلح التوكل إلا عليه، وما توكل عبد على غير ربه إلا خذل، وما رجا غير الله إلا خاب. ومن دلالات كون الله حسب المتوكلين، وكافيهم أنهم لا يحتاجون معه إلى غيره في جميع



أمورهم، وهذا يقتلع جذور التشريك في التوكل، ويجعل العبد يفرد ربه به، كما يفرده بالعبادة.





المبحث الثالث

منزلة التوكل على الله

أولاً: التوكل نصف الدين

يذكر ابن القيم أن التوكل نصف الدين، لأن الدين عبادة واستعانة. ولذا كان القرآن مملوءًا من ذكره[١].

و(علم القرآن جمع في الفاتحة، وعلم الفاتحة في هذين الأصلين: عبادة الله، والتوكل عليه)[٢].

وذلك أن (الإخلاص والتوكل جماع صلاح الخاصة والعامة، كما أمرنا أن نقول في صلاتنا (إياك نعبد وإياك نستعين) فهاتان الكلمتان قد قيل إنها تجمعان معاني الكتب المنزلة من السماء)[٣].

١- انظر: مدارج السالكين ٢/ ٨٢، ٨٣، بصائر ذوي التمييز ٢/ ٣١٥.

٢- جامع الرسائل لابن تيمية، المجموعة الأولى ص٩١.

٣- دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية ١/ ٢١٢.

فإن العبد لا بد له من غاية مطلوبة، ووسيلة موصلة إلى هذه الغاية. فأشرف غاياته التي لا غاية أجل منها عبادة ربه.وأعظم وسائله التي لا وسيلة له غيرها التوكل على الله والاستعانة به[1]. ولهذا جمع الله بين هذين الأصلين في مواضع من كتابه[2] منها قوله: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ ﴾[هود: ١٢٣].

ثانياً: التوكل شرط في الإيمان والإسلام:

ومما يبين منزلة التوكل الأدلة التي تفيد أنه شرط في الإيمان والإسلام.

قال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[المائدة: ٢٣].

وقال: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾[يونس: ٨٤].

وبناء على ذلك يظهر أن التوكل (أصل لجميع مقامات

١- انظر: طريق الهجرتين ص٢٥٦.

٢- وهي سبعة مواضع انظر المصدر السابق.

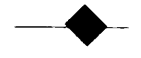
الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلته منها منزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل)[1].

ثالثاً: التوكل في القرآن مقترن بأركان الإسلام وشعائره العظام:

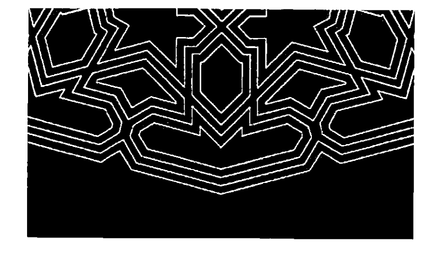
﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾

[الأنفال: ٢ - ٣]

وفي تقديم التوكل على الصلاة دليل على عظم قدره.



١- طريق الهجرتين ٢٥٨.



المبحث الرابع

حكم التوكل على الله

التوكل على الله تعالى من فروض الأعيان

يقول ابن تيمية: (وتظن طائفة أن التوكل إنما هو من مقامات الخاصة المتقربين إلى الله بالنوافل، وكذلك قولهم في أعمال القلوب وتوابعها، من الحب والرجاء والخوف والشكر ونحوه. وهذا ضلال مبين، بل جميع هذه الأمور فرض على الأعيان باتفاق أهل الإيمان)[1].

وقد سبق ذكر بعض الأدلة على ذلك، ومنها قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[المائدة: ٢٣].

وقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[المائدة: ١١].

والأمر وأسلوب الشرط يفيدان وجوب التوكل.

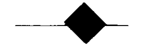
١- مختصر الفتاوى المصرية ص١٢٤.

يقول ابن تيمية: (فإن التوكل على الله واجب من أعظم الواجبات، كما إن الإخلاص لله واجب، وحب الله ورسوله واجب، وقد أمر الله بالتوكل في غير آية أعظم مما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة، ونهى عن التوكل على غير الله)[1].

ولذا فإن الحريص على نجاة نفسه يحاسب نفسه في تقصيرها في القيام بهذا الفرض، ويتذكر ذلك عند تجديد التوبة من الذنوب.

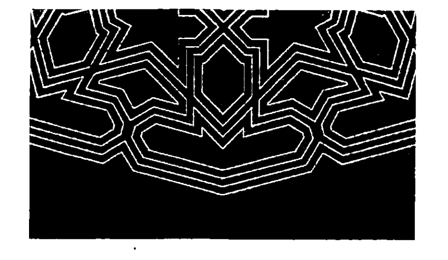
(فواجبات القلوب أشد وجوباً من واجبات الأبدان، وآكد منها، وكأنها ليست من واجبات الدين عند كثير من الناس، بل هي من الفضائل والمستحبات.

فتراه يتحرج من ترك فرض أو ترك واجب من واجبات البدن، وقد ترك ما هو أهم منه من واجبات القلوب وأفرضها)[2].



١- مجموع الفتاوى ٧/ ١٦.

٢- إغاثة اللهفان ٢/ ١٨٠، وانظر: كتابي عمل القلب ص١٣ - ١٦.



المبحث الخامس

فضل التوكل على الله

من فضل الله تعالى على عبيده أن جعل التوكل من أعظم أسباب الفوز بالجنة قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[العنكبوت: ٥٨ - ٥٩]. وقال سبحانه: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[الشورى: ٣٦].

ومما يدل على فضل التوكل قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾

[آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤].

فقد أخبر الله أن أولئك المتوكلين عليه رجعوا بنعمة من الله وفضل وسلامة ورضوان، وأن ذلك الفضل من الله ذي الفضل العظيم، ذلك لأنهم لم يكترثوا بجموع الأعداء، بل بادروا للاستجابة لله وللرسول ﷺ.

(فعقب هذا الجزاء والحكم لذلك الوصف والعمل بحرف الفاء، وهي تفيد السبب، فدل ذلك على أن ذلك التوكل هو سبب هذا الانقلاب بنعمة من الله وفضل، وأن هذا الجزاء جزاء على ذلك العمل)[1].

ومن فضائل التوكل أن الله يحب أهله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[آل عمران: ١٥٩].

ومن أحبه الله وفقه وسدده، كما في الحديث القدسي: (فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه)[2].

ومن فضائله قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، أي

١- جامع الرسائل لابن تيمية، المجموعة الأولى ص٩٠.

٢- أخرجه البخاري (ح/ ٦٥٠٢).

كافيه، (قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من نفسه،وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته... ولم يقل: فله كذا وكذا من الأجر... فلو توكل العبد على الله حق توكله، وكادته السموات والأرض ومن فيهن، لجعل له مخرجاً، وكفاه ونصره)[١].

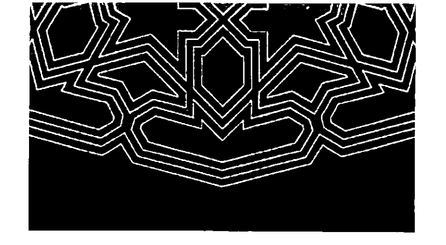
ومن فضائله ما جاء في حديث عمران بن حصين ﵁، وفيه أن من أمة محمد ﷺ سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، ثم وصفهم ﷺ فقال: (هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون)[٢].

والمعنى أنهم لكمال توكلهم يتركون الأسباب المكروهة كالاكتواء والاسترقاء؛ لأن المسترقي سائل مستعط ملتفت بقلبه إلى غير ربه، وأما مباشرة الأسباب المباحة والتداوي على وجه لا كراهة فيه، فغير قادح في التوكل[٣].

١- فتح المجيد ص٤١١.

٢- أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٣٧١- ٣٧٢).

٣- انظر: فتح المجيد ٩٤، ٩٦، ٩٧.



المبحث السادس

التوكل والهداية

هداية الله عبده تدعوه إلى التوكل على ربه، فعلى العبد أن يستقيم على أمر الله، فإذا تيقن أنه على الحق المبين، مهتدياً بنور الوحي والعلم الموروث عن سيد المرسلين، فلا جهل يضله، ولا هوى يميل به، فحينئذ لم يبق عليه إلا أن يسير متوكلاً على ربه، والله مؤيده وناصره.

وقد جمع الله بين التوكل والهداية في قول الرسل لقومهم: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ [إبراهيم: ١٢]. وقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ [النمل: ٧٩].

وقال سبحانه في محاورة شعيب عليه السلام لقومه: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ

عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[هود: ٨٨].

يقول ابن القيم بعد ذكره الآيتين الأوليين: (فأمر سبحانه بالتوكل عليه، وعقب هذا الأمر بما هو موجب للتوكل مصحح له مستدع لثبوته وتحققه، وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾.

فإن كون العبد على الحق يقتضي تحقيق مقام التوكل على الله والاكتفاء به، والإيواء إلى ركنه الشديد؛ فإن الله هو الحق، وهو ولي الحق وناصره ومؤيده وكافي من قام به. فما لصاحب الحق ألا يتوكل عليه؟ وكيف يخاف وهو على الحق؟ كما قالت الرسول لقومهم: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾... فتدبر هذا السر العظيم في اقتران التوكل والكفاية بالحق والهدى وارتباط أحدهما بالآخر. ولو لم يكن في هذه الرسالة إلا هذه الفائدة السرية، لكانت حقيقة أن تودع في خزانة القلب؛ لشدة الحاجة إليها، والله المستعان وعليه التكلان)[1].

١- طريق الهجرتين ص٢٥٧، ٢٥٨؛ وانظر: مدارج السالكين ٢/ ٩٤.

والدين كله في هذين المقامين: أن يكون العبد على الحق في قوله وعمله واعتقاده ونيته، وأن يكون متوكلاً على الله واثقاً به[1].

(فالعبد آفته إما من عدم الهداية وإما من عدم التوكل، فإذا جمع التوكل إلى الهداية، فقد جمع الإيمان كله)[2].

ومن يقدم على ضلال متوكلاً، وقد أغواه الجهل أو اتباع الهوى، فليس له عند الله عهد بنصرة ولا كفاية؛ فإنه لا يصلح عمل المفسدين.

هذا وإن الهداية تستجلب بالاستعانة بالله والتوكل عليه في طلبها، وفي أم القرآن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[الفاتحة: ٥ - ٦]، فالعبد يتوكل على ربه في طلب الهداية، ويتوكل عليه في العمل بما هداه ربه إليه، فالتوكل قرينة قبل الهداية ومعها وبعدها.

وعن ابن عباس ﵄ أن رسول الله ﷺ كان يقول: (اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ،

١- بدائع التفسير من كلام ابن القيم ص٢/ ٢٨٦.

٢- مدارج السالكين، ٢/ ٩٤.

وَبِكَ خَاصَمْتُ.اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ)[١].

يقول ابن القيم: (وشهدت شيخ الإسلام قدس الله روحه إذا أعيته المسائل واستصعبت عليه، فر منها إلى التوبة والاستغفار والاستغاثة بالله واللجأ إليه، واستنزال الصواب من عنده، والاستفتاح من خزائن رحمته، فقلما يلبث المدد الإلهي أن يتتابع عليه مدا، وتزدلف الفتوحات الإلهية إليه بأيتهن يبدأ. ولا ريب أن من وفق لهذا الافتقار علما وحالاً وسار قلبه في ميادينه بحقيقة وقصد، فقد أعطى حقه من التوفيق، ومن حرمه فقد منع الطريق والرفيق)[٢].

(وقد يكون الرجل من أذكياء الناس وأحدهم نظراً ، ويعميه عن أظهر الأشياء ، وقد يكون من أبلد الناس

١- متفق عليه، وهذا لفظ مسلم (ح/ ٢٧١٦)، واختصره البخاري (ح/ ٦٣١٧).

٢- إعلام الموقعين ٤/ ١٧٢، ١٧٣.

وأضعفهم نظراً ويهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

فمن اتكل على نظره واستدلاله ، أو عقله ومعرفته خذل)[١].

ومن أسباب الهداية إلى الحق مشاورة أهل المعرفة والعلم فيما يريد الإقدام عليه، وعدم الاعتداد بالرأي، واللين والرفق مع إخوانه حتى يصل هو وإياهم إلى الحق، وعدم الإقدام متوكلاً على الله حتى توجد العزيمة المبنية على علمه بأنه على الحق.

تستفاد الإشارة إلى ذلك من قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[آل عمران: ١٥٩].

و(المراد فإذا عزمت بعد الشورى، أي: تبين لك وجه السداد فيما يجب أن تسلكه فعزمت على تنفيذه)[٢].

١- درء تعارض العقل والنقل ٩/ ٣٤.

٢- التحرير والتنوير ٢/ ١٥١.

وإذا كان الله يأمر نبيه المؤيد بالوحي بالمشاورة، والتوكل بعد العزم، فغيره أولى بذلك؛ وذلك أن من يقدم على غير علم ولا مشاورة، أو مع تردد لعدم وضوح الأمر له بعد المشاورة، قد يضر من حيث أراد النفع.

وهذا يظهر كثيراً في الفتن التي يلتبس فيها الحق بالباطل، وتحير العقلاء، فمن التبس عليه فيها وجه الحق، فعليه بالتوقف والبقاء على ما كان عليه قبل الفتنة والاختلاف.

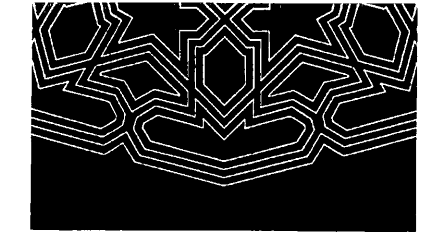
عن أبي واقد الليثي قال: (إن رسول الله ﷺ قال ونحن جلوس على بساط: إنها ستكون فتنة، قالوا: وكيف نفعل يا رسول الله؟ فرد يده إلى البساط وأمسك به، فقال: تفعلون هكذا. وذكر لهم يوما: أنها ستكون فتنة، فلم يسمعه كثير من الناس، فقال معاذ بن جبل: ألا تستمعون ما يقول رسول الله ﷺ، فقالوا: ما قال؟ قال: إنها ستكون فتنة، فقالوا: كيف لنا يا رسول الله؟ أو كيف نصنع؟ قالوا: ترجعون إلى أمركم الأول)[1].

١- أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، وأورده الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣١٦٥).

وعن ابْنِ عُمَرَ رضي اللهُ عَنْهُما، قَالَ: «إِنَّمَا كَانَ مَثَلُنَا فِي الْفِتْنَةِ كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا يَسِيرُونَ عَلَى جَادَّةٍ يَعْرِفُونَهَا، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ غَشِيَتْهُمْ سَحَابَةٌ وَظُلْمَةٌ، فَأَخَذَ بَعْضُهُمْ يَمِينًا وَشِمَالا فَأَخْطَأَ الطَّرِيقَ، وَأَقَمْنَا حَيْثُ أَدْرَكَنَا ذَلِكَ حَتَّى جَلَّى اللهُ ذَلِكَ عَنَّا فَأَبْصَرْنَا طَرِيقَنَا الأَوَّلَ فَعَرَفْنَاهُ وَأَخَذْنَا فِيهِ، وَإِنَّمَا هَؤُلاءِ فِتْيَانُ قُرَيْشٍ يَقْتَتِلُونَ عَلَى السُّلْطَانِ وَعَلَى هَذِهِ الدُّنْيَا، مَا أُبَالِي أَنْ يَكُونَ لِي مَا يُقَتِّلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ الْجَرْدَاوَيْنِ».[١]

وأما من علم أن ما هو مقدم عليه هو الأمر المشروع، لكنه يخاف من تبعاته، فعليه أن يتوكل على ربه، ويقدم بلا تردد، ويمضي بلا التفات.

١- الأثر أخرجه ابن سعد في الطبقات ٤/ ١٧١، ١٧٢، وعزاه محقق سير أعلام النبلاء إلى حلية الأولياء أيضاً ١/ ٣٠٩، ٣١٠، وذكر أن سند ابن سعد صحيح. سير أعلام النبلاء ٣/ ٢٣٧.



المبحث السابع

مجالات التوكل على الله

المطالب التي يتوكل الناس على الله في تحصيلها لا تنحصر، إذ كل ما يريدونه يمكن أن يتوكلوا على الله في طلبه.

وقد ذكر ابن القيم أن التوكل على الله نوعان:

أحدهما: توكل عليه في جلب حوائج العبد وحظوظه الدنيوية، أو دفع مكروهاته ومصائبه الدنيوية.

والثاني: التوكل عليه في حصول ما يحبه ويرضاه من الإيمان واليقين والجهاد والدعوة إليه..

وكلا هذين النوعين مطلوب شرعاً.

(وبين النوعين من الفضل ما لا يحصيه إلا الله.. فأعظم التَّوَكُّل عَلَيْهِ: التَّوَكُّل فِي الْهِدَايَة، وَتَجْرِيد التَّوْحِيد، ومتابعة الرَّسُول وَجِهَاد أهل

الْبَاطِلِ، فَهَذَا توكل الرُّسُل وخاصة أتباعهم)[1].

وهكذا كان صحابة رسول الله ﷺ، (فإن هممهم كانت في التوكل أعلى من همم من بعدهم؛ فإن توكلهم كان في فتح بصائر القلوب، وأن يعبد الله في جميع البلاد، وأن يوحده جميع العباد، وأن تشرق شموس الدين الحق على قلوب العباد،فملؤا بذلك التوكل القلوب هدى وإيمانا، وفتحوا بلاد الكفر، وجعلوها دار إيمان، وهبت رياح روح نسمات التوكل على قلوب أتباعهم، فملأتها يقينـاً وإيمانا)[2].

والنوع الثاني من أنواع التوكل جاء في القرآن الأمر به وحكايته عن المرسلين وعباد الله الصالحين.

ولعلي أشير إلى بعض ذلك، مع ذكر ما تيسر من النصوص الواردة فيه؛ ليتبين من خلال ذلك أهمية التوكل في تلك الشؤون وتأكيده، وعظم أثره في حصول التأييد والنصر والكفاية من رب العالمين.

١- التوكل قوة على القيام بعبادة الله وإحسانها، ولذا

١- الفوائد ص١٢٩، وانظر: طريق الهجرتين ص٢٦٢.

٢- مدارج السالكين ٢/ ٩٩، ١٠٠.

يقرن الله بين التوكل والعبادة، مع أن التوكل من عبادة الله. ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾، والله خلق الموت والحياة ليختبر عباده في حسن العمل ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الملك: ٢].

ولهذا أوصى رسول الله ﷺ حبيبه معاذاً بالاستعانة بربه على حسن عبادته (فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال:يامعاذ، والله إني لأحبك، أوصيك يا معاذ، لا تدَعَنَّ في دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)[1]. وكما أن هذا الدعاء مشروع أدبار الصلوات فهو مشروع مطلقاً، وهو غاية الاجتهاد في الدعاء. قال ﷺ: (أتحبون أن تجتهدوا في الدعاء؟ قولوا: اللهم أعنا على شكرك وذكرك وحسن عبادتك)[2].

١- أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي ٣/ ٥٣، وصحح إسناده النووي في الأذكار ص١٤٢.

٢- أخرجه أحمد (ح/ ٧٩٨٢)، وهو في السلسلة الصحيحة

٢- التوكل قوة في الثبات على الحق أمام كيد المنافقين والكافرين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾[الأحزاب: ١ - ٣]. ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٨]. ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال: ٤٩].

٣- التوكل أعظم سلاح يقوى به المؤمنون على حرب عدوهم، ولا يمكن أن يتفوق عليهم فيه، وبه يأتي نصر الله، إذا بذل المؤمنون الأسباب الممكنة، وكان قتالهم مشروعاً. ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ۝١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٍ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ

---

(٨٤٤).

ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾[آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤]. ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[آل عمران: ١٢١ - ١٢٢].

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[المائدة: ٢٢ - ٢٣].

وحيث إن المؤمنين لا يأمنون خديعة الكفار، فعليهم أن يتحصنوا بالتوكل مع الاحتراز من غير إخلال بما شرعه الله. ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾[الأنفال: ٦١ - ٦٢].

وإدراكاً لهذا المعنى كان رسول الله ﷺ يعظم التوكل على الله في الغزو، فعن أنس رضي الله عنه قال: (كان رسول الله ﷺ إذا غزا قال: اللهم أنت عضدي ونصيري، بك أحول وبك أجول، وبك أصول، وبك أقاتل)[1].

وفقه الصحابة هذا المعنى وأشربت بالتوكل قلوبهم، فتوالت انتصاراتهم مع قلة عدتهم.

قال عياض الأشعري -رحمه الله- شهدت اليرموك وعلينا خمسة أمراء: أبو عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان، وابن حسنة، وخالد بن الوليد، وعياض. فقال عمر رضي الله عنه: إذا كان قتل، فعليكم أبو عبيدة. قال: فكتبنا إليه: إنه جاش إلينا الموت، واستمددناه، فكتب إلينا: إنه قد جاءني كتابكم تستمدوني، وإني أدلكم على ما هو أعز نصراً وأحضر جنداً، الله عز وجل فاستنصروه، فإن محمداً ﷺ قد نصر يوم بدر في أقل من عدتكم، فإذا أتاكم كتابي هذا فقاتلوهم ولا تراجعوني. فقاتلناهم فهزمناهم،

١- أخرجه الترمذي (٣٥٨٤) وأبو داود (٢٦٣٢) وصححه الألباني.

وقتلناهم أربع فراسخ، وأصبنا أموالاً)[1].

ولقد كان يوم حنين درساً للمسلمين في أن من أعجبتهم كثرتهم وعدتهم وكلوا إلى أنفسهم فلم ينجحوا. وكان النصر عقب ذلك الضيق للمؤمنين الثابتين المتوكلين على ربهم.

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾[التوبة: ٢٥].

٤- التوكل قوة للمصلحين من الولاة والعلماء والدعاة إلى الله، فيما يعترضهم من عقبات، وما يجدونه من إعراض وأذى، يحققونه في أنفسهم ويذكرون به أتباعهم، وهو سبب عظيم في توفيق الله إياهم. وهم خلفاء الرسل في دعوة الخلق إلى الحق، لا جرم أنهم يتأسون بهم في التوصل إلى ذلك بالتوكل.

﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٣٩]. أي ناصراً

١- أخرجه الإمام أحمد (ح/ ٣٤٤) وصحح إسناده أحمد شاكر.

ومعيناً[1].

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾[هود: ١٢].

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[التوبة: ١٢٨ - ١٢٩].

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾[الرعد: ٣٠].

﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا

١- المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير ص١٠٩٣.

ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[هود: ٨٧ – ٨٨].

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم: ١١ – ١٢].

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾[الأعراف: ٨٨ – ٨٩].

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾[يونس: ٧١].

﴿ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن

قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٣ - ٥٦].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: ٤ - ٦].

يقول ابن تيمية: (ومتى اهتمت الولاة بإصلاح دين الناس صلح الدين للطائفتين والدنيا، وإلا اضطربت

الأمور عليهم جميعاً.

وملاك ذلك حسن النية للرعية، وإخلاص الدين كله لله عز وجل والتوكل عليه؛ فإن الإخلاص والتوكل جماع صلاح الخاصة والعامة، كما أمرنا أن نقول في صلاتنا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وليس من حسن النية للرعية والإحسان إليهم أن يفعل ما يهوون ويترك ما يكرهون، قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]. وقال لأصحاب نبيه: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧])[1].

ومن الأدلة على ما ذكره شيخ الإسلام قوله سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢ - ٣].

(قال الربيع بن خثيم: يجعل له مخرجاً من كل ما ضاق

١- دقائق التفسير ١/ ٢١٤.

على الناس. وكتبت عائشة إلى معاوية: إن اتقيت الله كفاك الناس، وإن اتقيت الناس، لم يغنوا عنك من الله شيئاً.

وكتب بعض الخلفاء إلى الحكم بن عمرو الغفاري (وهو صحابي) كتاباً يأمره فيه بأمر يخالف كتاب الله، فكتب إليه الحكم: إني نظرت في كتاب الله، فوجدته قبل كتاب أمير المؤمنين، وإن السموات والأرض لو كانتا رتقاً على امرئ فاتقى الله جعل له منهما مخرجاً، والسلام)[1].

٥- التوكل قوة للمؤمن أمام عدوه الشيطان، الذي يصده عن تدبر القرآن، وعن كل خير.

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾

[النحل: ٩٨ - ١٠٠].

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[المجادلة: ١٠].

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾

١- نور الاقتباس لابن رجب ص٣١، ٣٢.

[الإسراء: ٦٥].

٦- التوكل عدة للنجاة من شر الفتن:

وعن هاشم بن عامر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن رأس الدجال من ورائه حُبُك حُبُك[١] فمن قال: أنت ربي افتتن، ومن قال: كذبت، ربي الله، عليه توكلت، فلا يضره، أو قال: فلا فتنة عليه)[٢].

وعن عون بن عبد الله قال: بينا رجل في بستان بمصر في فتنة ابن الزبير مكتئبا، معه شيء ينكت به في الأرض، إذ رفع رأسه فسنح له صاحب مسحاة، فقال له: يا هذا، مالي أراك مكتئبا حزينا؟ قال: فكأنه ازدراه. فقال: لا شيء. فقال صاحب المسحاة: أللدنيا؟ فإن الدنيا عرض حاضر، يأكل منها البر والفاجر، والآخرة أجل صادق يحكم فيها ملك قادر، يفصل بين الحق

١- يعني شعر رأسه متكسر من الجعودة.

٢- أخرجه أحمد (ح/ ١٦٢٦٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح (٧/ ٢٤٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨٠٨).

والباطل. فلما سمع ذلك منه كأنه أعجبه، قال: فقال: لما فيه المسلمون. قال: فإن الله سينجيك بشفقتك على المسلمين، وسل، فمن ذا الذي سأل الله - عز وجل - فلم يعطه، ودعاه فلم يجبه، وتوكل عليه فلم يكفه، أو وثق به فلم ينجه؟ قال: فعلقت[1] لدعاء: اللهم سلمني وسلم مني، فتمحلت[2] ولم يصب منهم أحد)[3].

إن الفتن إذا عصفت بالأمة خفي سبيل الهدى تحت قترها، وغرق من وكل إلى نفسه في لججها، وأما المؤمنون فيصدقون في التوكل، ويعظمون الرغبة في الاهتداء، ويتعلقون بحبل الله، فيسيرون على نور من الله.

كان من دعاء رسول الله ﷺ: (اللهم ربَّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه

١- فعلقت لدعاء: فاغتنمته وأكثرت منه .

٢- فتمحلت: فانكشفت الفتنة.

٣- التوكل لابن أبي الدنيا (١٦) موسوعة ابن أبي الدنيا (١/ ١٤٣-١٤٤).

يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحقِّ بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم)[1]، وفي أم القرآن استهداء لو تدبره المسلم وصدق في طلبه، لكانت الهدى سبيله والتوفيق حليفه.

٧- مهما عظمت أهوال الدنيا، فإنها ليست بشيء عند أهوال القيامة، ومن ثم عظم خوف المؤمنين ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٩].

والتوكل على الله هو ملجأ المؤمنين للنجاة من تلك الأهوال.

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرن[2] قد التقم القرن وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر متى يؤمر بالنفخ فينفخ»، فكأنَّ ذلك ثقل على أصحاب النبيِّ ﷺ، فقال لهم: «قولوا:

١- أخرجه مسلم (ح/ ٧٧٠).

٢- صاحب القرن هو: إسرافيل عليه السلام الموكل بالنفخ في الصور. والمعنى: كيف أفرح وأتنعم ويطيب عيشي وقد قرب أن ينفخ إسرافيل في الصور، (انظر تحفة الأحوذي: ٧/ ١١٨).

حسبنا الله ونعم الوكيل، توكلنا على الله ربنا»[1].

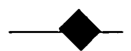
وقد بين الله جل وعلا أن التوكل عليه من أعظم أسباب الفوز في الدنيا والآخرة. ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٤١ - ٤٢]. ﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الشورى: ٣٦].

وقد جاء في السنة أن من قال حين يصبح وحين يمسي: (حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) سبع مرات، كفاه الله ما أهمه من أمر الدنيا والآخرة[2].

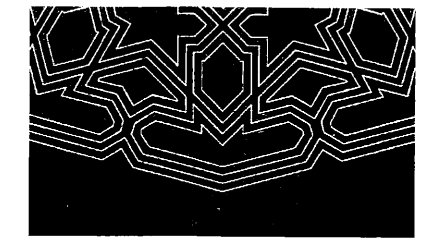
١- أخرجه الترمذي (٢٤٣١)، والحاكم (٣/ ٦٢٣)، وقال الذهبي: إسناده جيد، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٨٠٩).

٢- أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة برقم (٧١)

وهذا تذكير عملي بالتوكل في أمر الآخرة، يغفل عنه الكثيرون، فلا يخطر ببالهم إلا الكفاية من هموم الدنيا.



مرفوعاً، وأبو داود موقوفاً برقم (٥٠٨١) وصحح إسناده الأرناؤوط في زاد المعاد (٢/ ٣٧٦)



المبحث الثامن

أسباب تحقيق التوكل على الله

التوكل على الله من أعمال القلوب ومقامات الإيمان، فكل ما يصلح القلب ويقوي الإيمان فله أثر في تقوية التوكل[1].

وكلما زاد إيمان العبد زاد تعلقه بربه وتوكله عليه ورجاؤه فيه، والإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

ومن هنا كان للطاعات عموماً أثر في تقوية توكل العبد على ربه، كما إن للمعاصي أثراً في ضعف التوكل.

وحيث إن التوكل كما مر في تعريفه: عمل قلبي ينشأ من معرفة الله، فإن أسباب تحصيله علم نافع وعمل صالح.

وفي هذا المبحث سأذكر من العلوم والأعمال المقوية

١- ذكرت شيئاً من أسباب إصلاح القلب في كتاب: عمل القلب ص٨٠-٩٩.

للتوكل على الله ما عسى أن تكون طريقاً موصلاً إلى تحقيق التوكل والدخول في جنته.

ومما ينبغي الإشارة إليه أن علم الشخص بالتوكل لا يعني أنه حققه (فكثير من الناس يعرف التوكل وحقيقته وتفاصيله، فيظن أنه متوكل، وليس من أهل التوكل، فحال التوكل أمر آخر وراء العلم به)[1].

أولاً: الإيمان بالربوبية

الله عز وجل هو الرب المنفرد بالخلق والملك والتدبير في هذا الكون، فمرجع الأمور كلها إليه خلقاً وملكاً وتدبيراً وثواباً وعقاباً.

وهو سبحانه بيده وحده النفع والضر، والحياة والموت والسعادة والشقاوة والفلاح والخسران في الدارين.

فلا ينال عبد خيراً إلا بمشيئته ولو شاء منعه إياه، ولا يصيبه بلاء إلا بمشيئته ولو شاء عافاه، فهو يخفض ويرفع، ويعطي يمنع، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه.

١- تهذيب مدارج السالكين ٢/ ٥٤٥.

ولنتدبر سوياً هذه الآيات في هذا المعنى، وأنه يقتضي التوكل على الله وحده كما يفيده سياقها.

- ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[هود: ١٢٣].

- ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[النساء: ١٣٢].

- ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾[الطلاق: ٣].

- ومعنى بالغ أمره: أنه يبلغ النهاية فيما يريده من الأمور، فلا يفوته شيء، ولا يعجزه مطلوب.

- ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾[المزمل: ٩].

- قول هود لما تحدى قومه عاداً التي لم يخلق مثلها في البلاد: ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٦].

- ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[المجادلة: ١٠].

- ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ

كَشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[الزمر: ٣٨].

- ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[فاطر: ٢].

- ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[يونس: ١٠٧]

قال ابن القيم: (فالتوكل: محض الاعتماد والثقة والسكون إلى من له الأمر كله، وعلم العبد بتفرد الحق تعالى وحده بملك الأشياء كلها، وأنه ليس له مشارك في ذرة من ذرات الكون من أقوى أسباب توكله، وأعظم دواعيه.

فإذا تحقق ذلك علما ومعرفة. وباشر قلبه حالاً، لم يجد بدا من اعتماد قلبه على الحق وحده، وثقته به، وسكونه إليه وحده، وطمأنينته به وحده؛ لعلمه أن حاجاته وفاقاته وضروراته، وجميع مصالحه كلها بيده وحده، لا بيد غيره.

فأين يجد قلبه مناصا من التوكل بعد هذا؟)[1].

١- مدارج السالكين ٢/ ١٠١، وانظر: دقائق التفسير ١/ ٣٤٨.

إن تدبر الآيات السابقة وما في معناها يملأ القلب إجلالاً لله وتعظيماً، وثقة وتفويضاً، ورجاءً وتوكلاً.

فاقرأها مرة بعد أخرى، وتدبر معانيها، وحرك قلبك بمقتضى دلالاتها، تجد إيماناً يباشر قلبك، ويقيناً صادقاً يحيي فؤادك، وتوكلاً تسعد معه في دنياك وأخراك.

ثانياً: اليقين بكفاية الله المتوكلين

يقول ربنا عز وجل: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١]، ويقول سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

ومعنى حسبه (أي كافيه بحيث لا يحتاج معه إلى غيره)[1].

ومعنى (بالغ أمره) أي: يبلغ ما يريد من أمر، فلا يفوته شيء، ولا يعجزه مطلوب، وهذا حض على التوكل، لأن العبد إذا تحقق أن الله كافي من توكل عليه، وأن الأمور بيده، تعلق قلبه بربه، ولم يعول على أحد سواه[2].

١- التسهيل لابن جزي ٢/ ٤٥٧.

٢- انظر: المصدر السابق ٢/ ٤٥٧.

(ومَن كان الله كافيَهُ وواقِيَهُ فلا مَطمَعَ فيه لعدوِّه،،ولا يضره إلاَّ أذى لابدَّ منه، كالحرّ والبرد والجوع والعطش،وأما أن يضرهُ بما يبلغ منه مراده، فلا يكون أبدًا... قال بعض السلف: جَعَلَ الله تعالى لكلِّ عمل جزاء من جنسه، وجَعَل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده... فلو توكَّل العبد على الله تعالى حقَّ توكُّله، وكادته السموات والأرض ومَن فيهنَّ، لجعَلَ له مخرجًا من ذلك، وكفاه ونَصَره)[1].

والتوكل يقوم على علم القلب وعمله، والعلم يحمل على العمل.

والعلم الحامل على التوكل على الله يتضمن يقين العبد بثلاثة أمور: يقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه بما وكل إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك.

وهذه الأمور الثلاثة دلت عليها هاتان الآيتان.

وهذه الكفاية للمتوكلين لا بد للمؤمن أن يفقه معناها ووقتها:

---

١ - التفسير القيم ص٥٨٧.

معنى الكفاية:

ينبغي أن يعلم أن الكفاية لا يلزم منها حصول المطلوب في الوقت الذي يريده المتوكل في جميع الأحوال، لأن مصلحة العبد قد تكون في عدم حصوله، أو تأخره. ومن هنا كان على العبد أن يفوض أموره إلى الله، فقد يكون فيما يكرهه خير له، وقد يكون فيما يحبه شر له. ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[البقرة: ٢١٦].

و(التفويض هو روح التوكل ولبه وحقيقته، وهو إلقاء أموره كلها إلى الله، وإنزالها به طلبا واختيارا، لا كرها واضطرارا، بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على أمره كل أموره إلى أبيه العالم بشفقته عليه ورحمته وتمام كفايته وحسن ولايته له، وتدبيره له، فهو يرى أن تدبير أبيه له خير من تدبيره لنفسه، وقيامه بمصالحه وتوليه لها خير من قيامه هو بمصالح نفسه وتوليه لها)[1].

والمؤمن حينما يصلي الاستخارة، ويقول في دعائها:

١- مدارج السالكين ٢/ ٨٩، ٩٠.

(اللهم إني أستخيرك بعلمك،واستقدرك، بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم)[1] فهذا توكل، ثم قال: «فإنك تعلم ولا أعلم، وتقدر ولا أقدر، وأنت علام الغيوب» فهذا تبرؤ إلى الله من العلم والحول والقوة، وتوسل إليه سبحانه بصفاته التي هي أحب ما توسل إليه بها المتوسلون، ثم سأل ربه أن يقضي له ذلك الأمر إن كان فيه مصلحته عاجلاً أو آجلاً، وأن يصرفه عنه إن كان فيه مضرته عاجلاً أو آجلاً، فهذا هو حاجته التي سألها، فلم يبق عليه إلا الرضا بما يقضيه له، فقال: (واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به).

فقد اشتمل هذا الدعاء على هذه المعارف الإلهية، والحقائق الإيمانية التي من جملتها التوكل والتفويض قبل وقوع المقدور والرضا بعده، وهو ثمرة التوكل، والتفويض علامة صحته، فإن لم يرض بما قضي له فتفويضه معلول فاسد)[2].

١- أخرجه البخاري (ح/ ١١٦٢).

٢- مدارج السالكين ٢/ ٩٠.

وقت الكفاية:

كما أن صفة الكفاية راجعة إلى الله حكمة وتقديراً، فكذلك الشأن في وقتها، ولهذا لما (ذكر الله كفايته للمتوكل عليه فربما أوهم ذلك تعجيل الكفاية وقت التوكل فعقبه بقوله:(قد جعل الله لكل شيء قدرا) أي: وقتا لا يتعداه، فهو يسوقه إلى وقته الذي قدره له، فلا يستعجل المتوكل ويقول: قد توكلت ودعوت فلم أر شيئاً، ولم تحصل لي الكفاية، فالله بالغ أمره في وقته الذي قدره له، وهذا كثير جدا في القرآن والسنة، وهو باب لطيف من أبواب فهم النصوص)[1].

قصة يوسف وكفاية الله لنبيه يعقوب:

إن المتأمل في سورة يوسف يجد فيها المعنيين السابقين بجلاء؛ فيعقوب عليه السلام قابل أول مصاب بالصبر، مقروناً بالتوكل والاستعانة بالله.

١- إعلام الموقعين ٤/ ٢٠٥، بواسطة بدائع التفسير الجامع لما فسره ابن القيم ٣/ ١٦٥.

﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[يوسف: ١٨].

ولقد كانت كفاية الله لنبيه يعقوب مقرونة بابتلاء رفع الله به منزلته،وأعلى من شأنه، فلقد غاب عنه ابنه الحبيب سنين طويلة محفوظاً بحفظ الله، متقلباً بين نعم الله وابتلائه، حتى ظهرت الكفاية في أكمل حللها. ولم يذكر يوسف حينئذ إلا إحسان ربه به، وبأبويه، ولطفه وتمام علمه وحكمته فيما قدره عليهم.

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[يوسف: ١٠٠].

وفي السورة ذكر توكل يعقوب لما بعث بابنه الحبيب الآخر مع إخوته ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾[يوسف: ٦٧].

ومع ذلك ابتلاه الله في هذا الابن فقابل هذا الابتلاء أيضاً، بالصبر والاستعانة والتسليم للعليم الحكيم ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[يوسف: ٨٣].

ومع ترادف المصائب عليه، والحزن الذي ابيضت بسببه عيناه إلا أنه كان واثقاً في وعد الله، حسن الظنِّ بربه، صابرًا لحكمه، عظيم الرجاء فيه، لا يتطرق اليأس إلى قلبه، يقول ونعم ما قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ٨٣] وقال: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[يوسف: ٨٧]. فكانت زيادة الشدة مؤذنة بقرب الفرج، وأراد الله أن تكون الكفاية على جسر الابتلاء ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[يوسف: ٢١].

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

[يوسف: ٩٠]

ولعل هذا المعنى من دلالات اقتران التوكل بالصبر في آيات الكتاب العزيز.

﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[إبراهيم: ١٢].

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[النحل: ٤١- ٤٢].

وهذا الابتلاء رفع للدرجات في الآخرة، إذا وفق الله عبده للصبر مع التوكل. ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[العنكبوت: ٥٨ - ٥٩].

ثالثاً: التفكر في معاني أسماء الله الحسنى:

ذكر ابن القيم أن التوكل له تعلق عام بجميع الأسماء الحسنى، كما أن له (تعلقًا خاصًا بعامة أسماء الأفعال، وأسماء الصفات. فله تعلق باسم «الغفار والتواب،

والعفو، والرءوف، والرحيم»، وتعلق باسم «الفتاح، والوهاب، والرزاق، والمعطي، والمحسن»، وتعلق باسم «المعز، المذل، الخافض الرافع، المعطي المانع» من جهة توكله عليه في إذلال أعداء دينه، وخفضهم ومنعهم أسباب النصر. وتعلق بأسماء «القدرة، والإرادة»)[1].

(ولهذا فسره من فسره من الأئمة بأنه المعرفة بالله، وإنما أراد أنه بحسب معرفة العبد يصح له مقام التوكل، وكلما كان بالله أعرف كان توكله عليه أقوى)[2].

وسأقتصر على إيراد بعض الأسماء الحسنى التي اقترن ذكر التوكل بها في آيات القرآن.

فمن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[الشعراء: ٢١٧ - ٢٢٠].

هذه الآيات من سورة الشعراء التي تضمنت ذكر إنجاء الله عباده المؤمنين وإهلاك الكافرين في سياق قصص عدد

١- مدارج السالكين ٢/ ٩٢.

٢- المصدر نفسه.

من الأنبياء. وكانت كل قصة تختم بقوله ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾، أي بعزته أهلك الكافرين، وبرحمته أنجى عباده المؤمنين.

وبعد هذا التذكير بأيام الله، تأتي تلك الآيات في ختام السورة وقد امتلأ القلب تعظيماً وإجلالاً ورهبة ورغبة إلى العزيز الرحيم ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾.

واسم العزيز ورد في القرآن ما يقرب من مائة مرة.

ومعنى العزيز أي الذي له جميع معاني العزة، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾[يونس: ٦٥].

وهي معان ثلاثة: عزة القوة، وعزة الامتناع فلا يحتاج إلى أحد، بل هو القادر على كل شيء الذي لا يقدر أحد عليه، تنزه عن النقائص والأنداد، وعزة القهر والغلبة لجميع الكائنات[١].

وأما الرحيم فهو ذو الرحمة التي يرحم بها عباده. ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾[الملك: ٢٩].

(ومن مغزى اقتران هذين الاسمين (العزيز الرحيم) أن

١- انظر مختصر فقه الأسماء الحسنى ص٦٢.

من تفكر فيهما أوجب له ذلك صدق التوكل على الله، إذ الاعتماد لا يصلح إلا على قوي قادر لا يُغْلَب، ومع ذلك رحيم بعباده، هو حسب من توكل عليه)[1]. فالقوي إذا لم يرحمك لم يبال بك ولو تذللت له، والرحيم بك إذا لم يكن قوياً قادراً لم ينفعك، وربك هو العزيز الرحيم.

وفي الآيات الثلاث التي تلت هذه الآية وختمت باسمي (السميع العليم) تحريض على التوكل، إذ بذلك تتم طمأنينة المتوكل وسكونه إلى ربه، فالعزيز الرحيم ليس غائباً عن عبده بل يسمع كلامه ونجواه وشكواه، ويراه ويعلم حاله وما في قلبه من التوكل على ربه، فهو السميع لجميع الأصوات، على اختلاف اللغات، وتنوع الحاجات، وهو العليم بكل شيء، قد أحاط علمه بالسرائر والظواهر، والماضي والحاضر والمستقبل.

﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾[الأعراف: ٨٩]، ولليقين بإحاطة الله تعالى بالغيب علماً وملكاً وقدرة أثر عظيم في التفويض إليه.

١- عمل القلب ص٧٧.

يقول سبحانه ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾[هود: ١٢٣].

فهذا الغيب المنتظر الذي يشغل التفكير فيه النفوس، فتقلق وتنتابها الهموم، هو لله فهو العالم به، المدبر له، القادر عليه، فكيف تغفل تلك القلوب عن ربها، وفي الانطراح بين يديه، والتفويض إليه سكنها وطمأنينتها؟!

ولا تتم طمأنينة العبد حتى يكون وكيله الذي يفوض أموره إليه مع الصفات المتقدمة حكيماً يضع الأمور في مواضعها، ويحكم بما يشاء ويفعل ما يريد، لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه.

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٤٩]

وإذا كان الله عزيزاً رحيماً سميعاً عليماً حكيماً يتوكل عليه وتفوض الأمور إليه، فإنه سبحانه مع ذلك الحي الذي لا يموت، له الحياة الكاملة فهي مستمرة لا تأخذه سبحانه سنة ولا نوم ولا ذهول، وكل من يتوكل عليه العبد سوى الله فهو إلى فناء، ويأخذه الذهول والنوم،

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾[الفرقان: ٥٨]. ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾[الرحمن: ٢٦ - ٢٧].

فهو قائم على عباده في حياتهم وبعد وفاتهم، في دنياهم وأخراهم، ففي الوقت الذي يفارق فيه المتوكل الدنيا، وينقطع تدبيره، يبقى الحي الوكيل الحفيظ جل وعلا متولياً أموره في ما خلفه من دنياه، وما أقبل عليه من أخراه، كما أنه تولى أمره يوم كان في بطن أمه، وحين خرج إلى الدنيا لا يعلم شيئاً.

فالأب الصالح الذي وضع الكنز تحت الجدار، متوكلاً على ربه أن يحفظه لغلاميه الصغيرين، تولى ربه حفظ الكنز بعد وفاته وانقطاع تدبيره، وقيض له الخضر ليقيم الجدار لما أراد أن ينقضّ، ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾[الكهف: ٨٢].

بل إن المؤمن المتوكل تأتيه البشارة بالكفاية عند موته من ملائكة الرحمة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ

ﭐلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾[فصلت: ٣٠ - ٣١]. (تتنزل عليهم الملائكة) قال مجاهد: يعني عند الموت قائلين (ألا تخافوا) قال مجاهد... أي مما تقدمون عليه من أمر الآخرة، (ولا تحزنوا) على ما خلفتموه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال، فإنا نخلفكم فيه)[1].

(ذكر أبو قدامة الرملي قال: قرأ رجل هذه الآية ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٨ - ٥٩]. فأقبل سليمان الخواص فقال: يا أبا قدامة، ما ينبغي لعبدٍ بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله في أمره. ثم قال: كيف قال الله تبارك ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ فأعلمك أنه لا يموت، وأن جميع خلقه يموتون، ثم أمرك بعبادته، فقال: وسبح بحمده،

١- المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير ص١٢٢٣.

ثم أخبرك أنه خبير بصير، ثم قال: والله يا أبا قدامة، لو عامل عبدٌالله بحسن التوكل وصدق النية له بطاعته، لاحتاجت إليه الأمراء فمن دونهم، فكيف يكون هذا محتاجاً، ومؤمله وملجؤه إلى الغني الحميد)[1].

ولوصف الله عز وجل نفسه بأنه الحي الذي لا يموت دلالة أشار إليها الإمام الشافعي بقوله: «نزه الله نبيه، ورفع قدره، وعلمه وأدبه وقال: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨] ؛ وذلك أنَّ الناس في أحوال شتى: متوكل على نفسه أو على ماله، أو على زرعه أو على سلطانه، أو على عطية الناس، وكلٌّ مستند إلى حيٍّ يموت، أو على شيء يفنى يوشك أن ينقطع به، فنزه الله نبيه ﷺ، وأمره أن يتوكَّل على الحي الذي لا يموت»[2].

وأخيراً فإن من أسماء الله عز وجل الوكيل، ومعناه الكافي الكفيل، وليس معناه القائم بالأمر نيابة عن العباد؛ لأن

١- التوكل لابن أبي الدنيا؛ ضمن موسوعة ابن أبي الدنيا (١/ ١٥٤).
٢- أحكام القرآن للشافعي، جمع البيهقي ص ٥٢٥ .

الله عز وجل لا يتوكل عن أحد، بل بيده الأمر كله[1].

وهو عام وخاص.

أما العام فيدل عليه قوله تعالى ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾[الزمر: ٦٢]، وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾[هود: ١٢].

أي المتكفل بأرزاق جميع المخلوقات وأقواتها، القائم بتدبير شئون الكائنات وتصريف أمورها[2].

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[العنكبوت: ٥٩ - ٦٠]. ومعنى لا تحمل رزقها (أي لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تدخر شيئاً لغد)[3].

وأما الخاص فيدل عليه قوله: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[الأحزاب:٣]. وقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. وقوله: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ

١- انظر تفسير القرآن العظيم سورة آل عمران لابن عثيمين ٢/٤٤٨، ٤٥٠.

٢- انظر: مختصر فقه الأسماء الحسنى ص٥٩.

٣- المصباح المنير ص: ١٠٤٦.

لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٥].
والمعنى أي: نعم الكافي والناصر والمعين لمن توكل عليه، وكفى به في ذلك، فلا يحتاج العبد مع كفاية ربه إلى حد سواه[1]، وهو خاص بالمؤمنين.
هذا وإن للتفكر في بعض الأسماء الحسنى تأثيراً في قوة التوكل بحسب غرض المتوكل.
ومن ذلك التفكر في اسم «الرزاق» لمن أراد رزقاً، وفي اسمي (المولى والنصير) لمن أراد نصراً، وفي اسم (الستير) لمن أراد ستراً أو خاف فضيحة، وفي اسم (الشافي) لمن أراد شفاء قلبه أو بدنه، وأعظم من ذلك التوكل في مطالب الآخرة كالتفكر في اسمي (الغفور العفو) لمن أراد مغفرة الله وعفوه، وفي اسم (الهادي) لمن أراد هداية قلبه، وفي اسم (الشكور) لمن أراد مضاعفة الأجر ومزيد الفضل.

رابعاً: حسن الظن بالله

على قدر حسن ظن العبد بربه ورجائه إياه يكون

---

١ - انظر جامع الرسائل المجموعة الأولى ص٩٢.

توكله، ولهذا فسر بعضهم التوكل بحسن الظن بالله.

يقول ابن القيم: (والتحقيق أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه، إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به، ولا التوكل على من لا ترجوه)[١].

وكما أن العبد يؤمر بأن يدعو الله وهو موقن بالإجابة، فكذلك يتوكل على ربه وهو موقن بالكفاية، ثقة بربه حيث قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ وقد قال تعالى في الحديث القدسي (أنا عند ظن عبدي بي)[٢].

(فحسن الظن بالله لقاح الافتقار والاضطرار إليه، فإذا اجتمعا أثمرا إجابة الدعاء)[٣] وكفاية المتوكل.

قال سعيد بن جبير: التوكل على الله جماع الإيمان، وكان يدعو: اللهم إني أسألك صدق التوكل عليك، وحسن الظن بك[٤].

١- مدارج السالكين (٢/ ٨٩).

٢- أخرجه البخاري (ح/ ٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

٣- كتاب الفوائد (ص/ ١٩٩).

٤- سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٢٥).

يقول ابن القيم: (وأكثرُ النَّاسِ يظنون بالله غيرَ الحقِّ ظنَّ السَّوءِ فيما يختصُّ بهم وفيما يفعلُه بغيرهم، ولا يسلَمُ من ذلك إلا مَن عرف الله، وعرف أسماءَه وصفاتِهِ، وعرفَ موجبَ حمدِهِ وحكمته...

ومَن ظنَّ به أن يترُكَ خلقه سُدى، معطَّلينَ عن الأمر والنهى، ولا يُرسل إليهم رسله، ولا ينزِّل عليهم كتبه، بل يتركهم هَمَلاً كالأنعام، فقد ظَنَّ به ظنَّ السَّوء.

ومن ظنَّ به أنه إذا صدقه في الرغبة والرهبة، وتضرَّع إليه، وسأله، واستعان به، وتوكَّل عليه أنه يُخيِّبُه ولا يُعطيه ما سأله، فقد ظنَّ به ظنَّ السَّوءِ، وظنَّ به خلافَ ما هو أهلُه)[1].

خامساً: الإيمان بالقضاء والقدر:

الإيمان بالقضاء والقدر أحد أركان الإيمان، وله أثر عظيم في تحقيق التوكل، يقول سبحانه: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[التوبة: ٥١].

١- زاد المعاد (٣/ ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٤).

فإذا تيقن المؤمن علم الله السابق لكل ما سيكون له، وأن مشيئته نافذة فيه، فما شاءه كان، وما لم يشاء لم يكن، وأنه لا يقع عليه شيء إلا بمشيئة ربه ومولاه، وأن ذلك كله خلقه وأمره ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾، وهو مع ذلك مكتوب عليه قبل خلق السموات والأرض في اللوح المحفوظ لا يبدل ولا يغير. وهذه المراتب الأربع للإيمان بالقدر، وهي: العلم والكتابة والمشيئة والخلق ؛ فإن ذلك اليقين سيطرحه على باب مولاه متوكلاً عليه، مفوضاً أموره إلى من له الخلق والأمر، مؤمناً أنه لن يصيبه إلا ما شاءه الله وكتبه.

سادساً: استحضار العبد فقره إلى ربه وضرر تعلقه بغيره

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[فاطر: ١٥]. يخاطب الله تعالى في هذه الآية جميع الناس ويخبرهم بحالهم ووصفهم، وأنهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه:

فقراء في إيجادهم؛ فلولا إيجاده إياهم، لم يوجدوا.

فقراء في إعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح، التي لولا إعداده إياهم بها لما استعدوا لأي عمل كان.

فقراء في إمدادهم بالأقوات والأرزاق والنعم الظاهرة والباطنة، فلولا فضله وإحسانه وتيسيره الأمور، لما حصل لهم من الرزق والنعم شيء.

فقراء في صرف النقم عنهم، ودفع المكاره، وإزالة الكروب والشدائد. فلولا دفعه عنهم، وتفريجه لكرباتهم، وإزالته لعسرهم، لاستمرت عليهم المكاره والشدائد.

فقراء إليه في تربيتهم بأنواع التربية، وأجناس التدبير.

فقراء إليه في تألههم له، وحبهم له، وتعبدهم، وإخلاصهم العبادة له تعالى، فلو لم يوفقهم لذلك، لهلكوا، وفسدت قلوبهم وخوت أرواحهم .

فقراء إليه، في تعليمهم ما لا يعلمون، وعملهم بما يصلح حالهم، فلولا تعليمه إياهم لظلوا في دياجير الجهل،ولولا توفيقه، لكان علمهم وبالاً عليهم.

فهم فقراء بالذات إليه، بكل معنى، وبكل اعتبار.

و(الموفق منهم، الذي لايزال يشاهد فقره في كل حال

من أمور دينه ودنياه، ويتضرع له، ويسأله أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، وأن يعينه على جميع أموره، ويستصحب هذا المعنى في كل وقت، فهذا أحرى بالإعانة التامة من ربه وإلهه، الذي هو أرحم به من الوالدة بولدها)[1].

إن شهود العبد فقره إلى ربه يطرحه على بابه متوكلاً متضرعاً، لا سيما إذا شهد مع ذلك غنى ربه التام، لكماله وكمال صفاته.وأنه الحميد الذي يحمده الخلق على نعمائه وعلى كمال صفاته.

ومن عرف ربه بالغنى المطلق، عرف نفسه بالفقر المطلق، ومن عرف ربه بالقدرة التامة، عرف نفسه بالعجز التام، ومن عرف ربه بالعز التام، عرف نفسه بالمسكنة التامة، ومن عرف ربه بالعلم التام والحكمة، عرف نفسه بالجهل، وعلم العبد بافتقاره إلى الله الذي هو ثمرة هذه المعرفة هو عنوان سعادة العبد وفلاحه في الدنيا والآخرة[2].

١- تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٣٠٩، ٣١٠).

٢- مختصر فقه الأسماء الحسنى ٣٨.

وفي دعاء الاستخارة (اللهم إني أستخيرك بعلمك، واستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تعلم ولا أعلم، وتقدر ولا أقدر، وأنت علام الغيوب).

وكان من دعاء النبي ﷺ: (اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت)[١].

وشهود العبد فقره إلى الله ينبغي أن يكون أمام عينيه في جميع أحواله، في عسره ويسره وصحته ومرضه، وغناه وفقره.

يقول ابن تيمية: (والعبد مفتقر دائماً إلى التوكل على الله والاستعانة به كما هو مفتقر إلى عبادته، فلا بد أن يشهد دائماً فقره إلى الله وحاجته أن يكون معبوداً له وأن يكون معيناً له، فلا حول ولا قوة إلا بالله، ولا ملجأ من الله إلا إليه)[٢].

١- أخرجه أبو داود (٥٠٩٠)، وأحمد (٢٠٤٣٠)، وحسنه الألباني.

٢- مجموع الفتاوى ١/ ٥٦.

ومن فضل الله على عباده أن العبد كلما كان أكثر ذلاً لله وأعظم افتقاراً إليه وخضوعاً له، كان أقرب إليه وأكرم عليه وأعلى لمنزلته عنده، بخلاف الخلق، فكلما زادت حاجة العبد إليهم، زاد هوانه عندهم[1].

تضرر العبد بتعلقه بالناس خوفاً ورجاءً:

الناس ليس عندهم نفع ولا ضر، ولا عطاء ولا منع، إلا ما أجراه الله على أيديهم وجرى به قضاؤه، فهو سبحانه لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو.

قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]. وقد قال ﷺ لابن عباس: (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك)[2].

١- انظر: مجموع الفتاوى ١/ ٣٩، ٤٠.

٢- أخرجه أحمد في المسند (٢٨٠٤)، وجود بعض أسانيده ابن رجب، واستوفى شرحه في رسالته نور الاقتباس ص٢٣.

والخلق لا يقصدون منفعتك بالقصد الأول، وإنما يقصدون منفعتهم بك، وقد يكون في ذلك ضرر عليك، أما ربك فهو يريدك لك ولمنفعتك، لا لينتفع بك. وفي تدبر هذا المعنى فائدة عظيمة وراحة من المخلوقين، لكن لا يحملك ذلك على جفوتهم، بل أحسن إليهم لله لا لرجائهم[1].

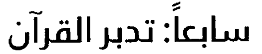
ومتى شهد العبد أن ناصيته ونواصي العباد كلها بيد الله وحده، يصرفها كيف يشاء، لم يخفهم بعد ذلك ولم يرجهم، فيستقيم توحيده وتوكله.

ولهذا قال هود لقومه عاد متحدياً لهم مع ما بلغوا من القوة: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٦].

وما علق عبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب وخذل، وهذا معلوم بالاعتبار والاستقراء[2].

١- انظر: مجموع الفتاوى (١/ ٣٠-٣١) ؛ طريق الهجرتين (ص/ ٦٢-٦٣).

٢- انظر: مجموع الفتاوى (١/ ٢٩)، طريق الهجرتين (ص/ ٦١)



سابعاً: تدبر القرآن

القرآن كلام الله يتجلى الله فيه لعباده بصفات كماله. فتارة يتجلى في صفات العظمة والجلال، فتذل النفوس وتخشع القلوب، وتارة يتجلى في صفات الجمال والكمال، فيستنفد حبه من قلب العبد قوة الحب بحسب ما عرفه من صفات جماله ونعوت كماله، وإذا تجلى بصفات الرحمة والبر واللطف والإحسان، انبعث في القلب الرجاء وقوي الطمع. وإذا تجلى بصفات الكفاية والحسب والقيام بمصالح العباد وسوق أرزاقهم إليهم ودفع المصائب عنهم ونصره لأوليائه وحمايته لهم ومعيته الخاصة لهم، انبعثت من العبد قوة التوكل عليه والتفويض إليه والرضا به[1].

والقرآن مملوء من ذكر حاجة العباد إلى الله دون ما سواه، ومن ذكر نعمائه عليهم، ومن ذكر ما وعدهم في الآخرة من صنوف النعم واللذات، وهذا يحقق التوكل عليه والشكر له ومحبته على إحسانه[2].

١- انظر: الفوائد (ص/ ١٠٥ - ١٠٧).

٢- انظر الفتاوى (١/ ٢٨).

فتدبر القرآن سبب جامع في تقوية التوكل على الله، فهو يعرف العبد بربه، ويعرفه بنفسه، وبالغاية التي خلقه الله من أجلها، وأنه لن يقوم بها إلا بمعونة ربه، وذلك كله في أم القرآن وفي قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

عن ابن عباس قال: (إياك نعبد) يعني إياك نوحد ونخاف ونرجو ربنا لا غيرك (وإياك نستعين) على طاعتك وعلى أمورنا كلها)[1].

فمن تدبر الفاتحة التي فرض على كل مسلم قراءتها في كل ركعة كان ذلك داعياً إلى دوام توكله على ربه.

فالدعاء الذي تضمنته الفاتحة يتضمن الاستعانة بالله وسؤاله الهداية إلى الصراط المستقيم، وهذا الدعاء فرضه الله على كل مسلم يتكرر في الصلوات؛ وذلك أن كل عبد مضطر دائماً إلى مقصود هذا الدعاء، وهو هداية الصراط المستقيم، فإنه لا نجاة ولا سعادة إلا بذلك، وهذا الاهتداء لا يحصل إلا بهداية الله.

١- تفسير الطبري (١/ ٦٩).

وقد أثير إشكال: وهو أن المؤمنين قد هداهم، فما حاجتهم إلى سؤال الهداية؟

أجاب عن ذلك ابن تيمية، فقال: (وجواب من يجيب بأن المطلوب دوام الهدى، فكلام من لم يعرف حال الإنسان وما أمر به؛ فإن الصراط المستقيم: أن تفعل كل وقت ما أمرت به في ذلك الوقت من علم وعمل، ولا تفعل ما نهيت عنه، وهذا يحتاج إليه في كل وقت إلى أن يعلم ما أمر به في ذلك الوقت وما نهي وإلى أن يحصل له إرادة جازمة لفعل المأمور وترك المحظور... [فهو] في كل وقت يحتاج أن يجعل الله في قلبه من العلوم والإرادات ما يهدى به... والهدى المجمل لا يغنيه،إن لم يحصل هدى مفصل في كل ما يأتيه ويدبره، من الجزئيات التي يحار في كثير منها أكثر العقول، ويغلب الهوى أكثر الخلق؛ لغلبة الشبهات والشهوات على النفوس)[1].

فالحاصل أن طلب الهداية يتضمن: العلم بالحق

١- انظر: جامع الرسائل (ص/ ٩٩).

إجمالاً وتفصيلاً، وإرادة ذلك الحق إرادة جازمة، وتيسير أسباب القدرة عليه، ثم يأتي بعد ذلك قضية الثبات عليه، وهذه الأمور يحتاجها كل شخص في كل وقت.

ثامناً: ذكر الله

الذكر بالقلب واللسان يحيي في القلب تعظيم الله ويزيد في تألهه لربه، وإذا عظم الله في قلب المؤمن لم يلتفت في ملماته إلى غيره، فتعلق خوفه ورجاؤه وتوكله به وحده.

وإذا كان هذا المعنى قائماً في كل ذكر مشروع، فإن من الأذكار المأثورة ما له تعلق خاص بالتوكل، فمن أتى بها بلسانه وقلبه قوي توكله على ربه.

ومن أعظم الأذكار تقوية للتوكل «لا حول ولا قوة إلا بالله».

عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال له: (يا عبدالله بن قيس، ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟

فقلت: بلى يا رسول الله. قال: قل: لا حول ولا قوة إلا بالله)[١].

قال ابن تيمية: (معناها: لا تحول من حال إلى حال، ولا قدرة على ذلك إلا بالله سبحانه، فإنه خالق الأعمال والقوى عليها، فجمعت جميع الحركات والقدرة التي بها تكون الحركات في السموات والأرض. وقيل: لا حول عن معصية الله إلا بمعونة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله، والمعنى الأول أجمع وأشبه)[٢].

ويوصي ابن تيمية من ابتلي بالعشق المحرم بالإكثار من هذه الكلمة فيقول: (وليكن هجيراه[٣]: لا حول ولا قوة

١- صحيح مسلم (ح/ ٤٤).

٢- شرح العمدة لابن تيمية (كتاب الصلاة ج/ ٢/ ١٢٣)، وانظر: المصباح المنير للحموي (ص/ ١٥٨) مادة: (حول).

٣- في القاموس المحيط (وهذا هجِّيراه... أي دأبه وشأنه) مادة (هجر) ص٦٣٧.

إلا بالله، فإنها بها تحمل الأثقال، وتكابد الأهوال، وينال رفيع الأحوال)[1].

ومن ذلك قول العبد: (اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد). وهذا جاء في السنة في أذكار الرفع من الركوع وفي الذكر بعد الفريضة[2]، ليعلق المؤمن قلبه بربه، ولا يلتفت إلى سواه.

ومن ذلك أن يقول حين يصبح وحين يمسي: (حسبي الله لا إله إلا الله عليه توكلت وهو رب العرش العظيم)[3] سبع مرات، فيكفيه الله ما أهمه من أمر الدنيا والآخرة.

ومنها ما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول: (اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا

١- مجموع الفتاوى (١٠/ ١٣٧).

٢- أخرجه مسلم (ح/ ١٤٩-٢٠٥).

٣- سبق تخريجه في ص ٥٢ رقم (٢).

يموت، والجنس والإنس يموتون)[1].

ومنها ما جاء في حديث أبي بكرة أن رسول الله ﷺ قال: (دعوات المكروب: اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت)[2].

ومنها ما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: (حسبنا الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[آل عمران: ١٧٣][3].

ولما كان الخارج من منزله عرضة للحوادث والزلل ووقوع الظلم منه أو عليه شرع له أن يعتصم من ذلك بالتوكل على ربه.

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من قال - يعني إذا خرج من بيته: بسم الله، توكلت على الله، ولا حول ولا

١- متفق عليه، البخاري (٦٣١٧)، ومسلم (٢٧١٧) واللفظ له.

٢- أخرجه أبو داود (٥٠٩٠)، وأحمد (٢٠٤٣٠)، وحسنه الألباني.

٣- أخرجه البخاري (٤٥٦٣).

قوة إلا بالله، يقال له: هديت وكفيت ووقيت، وتنحى عنه الشيطان)[1].

فإذا عاد إلى بيته كان التوكل قرينه وهو يدخل بيته (بسم الله ولجناوبسم الله خرجنا وعلى الله ربنا توكلنا)[2].

ودعاء الاستخارة الوارد في السنة النبوية يتضمن تفويض الأمر إلى الله.

ومنها أن يستودع العبد ربه ما يخاف عليه، متوكلاً على ربه في حفظه.

فعن ابن عمر ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: (إن الله إذا استودع شيئاً حفظه)[3].

ومنها أن يعتمد على قوة ربه ونصرته عند لقاء العدو

١- أخرجه أبو داود (٥٠٩٠)، والترمذي (٣٤٢٦)، وصححه الألباني.

٢- أخرجه أبو داود (٥٠٩٦)، وحسن إسناده ابن باز في تحفة الأخيار ص ٢٨.

٣- أخرجه أحمد (ح/ ٥٦٠٥) وابن حبان (٣٣٧٦)، قال الأرناؤوط: إسناده صحيح، وصححه ابن حجر، وانظر تخريج الكلم الطيب (ص/ ١٠٥).

أو من يخافه من سلطان ونحوه، فيقول: (اللهم أنت عضدي، وأنت نصيري، بك أحول، وبك أصول، وبك أقاتل)[1].

تاسعاً: البلايا والمصائب

قد يكون الطريق إلى تحقيق التوكل على الله عند بعض المؤمنين البلايا والمصائب التي تنزل بهم، فتكسر سورة نفوسهم، ويتلاشى معها التعويل على الخلق عندهم، فلا يجدون إلا باب الخالق، فيرتمون ببابه، ويتعلقون بجنابه، فيصلح على ذلك دينهم، (وقد حكى الله عن المشركين إخلاص الدعاء له عند الشدائد، فكيف بالمؤمن؟!، فالبلاء يوجب للعبد تحقيق التوحيد بقلبه، وذلك أعلى المقامات وأشرف الدرجات)[2].

يقول ابن تيمية: (فمن تمام نعمة اللهّ على عباده المؤمنين

١- أخرجه أبو داود (٢٦٣٢)، والترمذي (٣٥٧٨)، وإسناده صحيح كما ذكر الأرناؤوط في تخريج الكلم الطيب (ص/ ٨٨).

٢- نور الاقتباس لابن رجب (ص/ ٧٥).

أن ينزل بهم الشدة والضر وما يلجئهم إلى توحيده، فيدعونه مخلصين له الدين، ويرجونه لا يرجون أحداً سواه، وتتعلق قلوبهم به لا بغيره، فيحصل لهم من التوكل عليه والإنابة إليه، وحلاوة الإيمان وذوق طعمه، والبراءة من الشرك ما هو أعظم نعمة عليهم من زوال المرض والخوف، أو الجدب، أو حصول اليسر وزوال العسر في المعيشة، فإن ذلك لذات بدنية ونعم دنيوية قد يحصل للكافر منها أعظم مما يحصل للمؤمن. وأما ما يحصل لأهل التوحيد المخلصين للهّ الدين فأعظم من أن يعبر عن كنهه مقال، أو يستحضر تفصيله بال. ولكل مؤمن من ذلك نصيب بقدر إيمانه، ولهذا قال بعض السلف: يا بن آدم، لقد بورك لك في حاجة أكثرت فيها من قرع باب سيدك. وقال بعض الشيوخ: إنه ليكون لي إلى الله حاجة، فأدعوه، فيفتح لي من لذيذ معرفته وحلاوة مناجاته ما لا أحب معه أن يعجل قضاء حاجتي؛ خشية أن تنصرف نفسي عن ذلك)[1].

١- مجموع الفتاوى(١٠/ ٣٣٣، ٣٣٤) .

وشاهد هذا المعنى في كتاب الله قوله سبحانه: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١١]. يقول ابن كثير: (أي: ومن أصابته مصيبة، فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب، واستسلم لقضاء الله، هدى الله قلبه، وعوضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه، ويقينا صادقا، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه، أو خيراً منه. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ يعني: يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه)[1].

وفي السنة عن أبي هريرة مرفوعاً: (إن الرجل ليكون له عند الله المنزلة فما يبلغها بعمل، فما يزال الله يبتليه بما يكره حتى يبلغه إياها)[2].

١- تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٣٧).

٢- انظر السلسلة الصحيحة للألباني رقم (١٥٩٩)، وقد عزاه لأبي يعلي في مسنده (٤/ ١٤٤٧)، وابن حبان (٦٩٣)، والحاكم (١/ ٣٤٤)، قال الألباني بعد أن ساق إسناده: وهذا إسناد حسن رجاله كلهم ثقات رجال مسلم غير البجلي. وهو كما قال

ولكن العبد ينبغي له أن يبادر إلى التوبة من الذنوب والإنابة إلى ربه والتوكل عليه، وهو في العافية، فليس كل أحد يوفق إلى ذلك عند حلول المصاب. وكثرة الذنوب قد تكون سبباً في عدم انجذاب قلبه إلى التوكل على الله والإنابة إليه، وهذا من عقوبات الذنوب، وإذا لم ينجذب قلب العبد إلى التضرع والتذلل والانكسار حال الشدائد والكرب، فهذا عنوان الهلاك[1]. نسأل الله العافية.

عاشراً: الصلاة الخاشعة

يقول تعالى ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾[البقرة: ٤٥-٤٦]. ويقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[البقرة: ١٥٣]. قرن الله بين الصبر والصلاة هنا، كما قرن بين الصبر والتوكل، وذلك أن الصلاة تصل قلب المؤمن بربه؛

الحافظ لا بأس به.

١- انظر: الجواب الكافي (ص/ ١٤٤).

لأنها ذكر، فإذا عرف ربه توكل عليه، وأعرض عن غيره، والذكر منشور الوصل ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾.

إن الصلاة بما تتضمنه من أذكار وقرآن وأفعال، متى أحسن العبد ركوعها وسجودها والخشوع فيها، كانت من أعظم ما يقوي توكله على ربه وتعلق قلبه به، دون من سواه.

وتلاوة الفاتحة في كل ركعة تذكير دائم بالاستعانة بالله والافتقار إليه في أعظم مطلوب وهو الهداية، والتكبير الذي تستفتح به، ويظل شعار المصلي في كل حركة، يصغر معه كل شيء سوى الله، فلا يلتفت قلب المصلي إلا إلى الكبير المتعال.

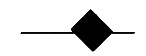
إن المصلي يعظم الله في ركوعه، ويبتهل إليه داعياً متضرعاً في سجوده كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: (أما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء)[1]، ويسن له في الرفع من الركوع أن يقول: (لا مانع لما أعطيت،

١- أخرجه مسلم (ح/ ٢٠٧) .

ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد)[1].

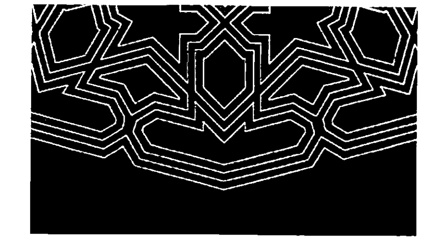
فإذا تيقن ذلك قلبه، خر ساجداً متضرعاً لمن بيده العطاء والمنع.

فإذا سلم المصلي من صلاته، كان مما يشرع له أن يقول: (اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد)[2].



١- أخرجه مسلم (ح/ ١٩٤)

٢- متفق عليه، البخاري (ح/ ٨٤٤)، ومسلم (ح/ ١٣٧) .



المبحث التاسع

ثمرات التوكل على الله

سبق ذكر بعض ثمرات التوكل عند الحديث على فضل التوكل ومجالاته، ومن تلك الثمرات إضافة إلى ذلك:

١- تحقيق الإيمان:

لأن التوكل من أعمال القلوب ومقامات أهل الإيمان، وقد تقدم أنه شرط في الإيمان، فمن أعظم ثمار التوكل تحقيق الإيمان، ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣].

ولما ذكر سبحانه في مطلع الأنفال صفات المؤمنين بقوله ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [الأنفال: ٢-٣].

قال بعدها: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾[الأنفال: ٢ - ٤].

٢- طمأنينة النفس وراحة القلب

إن العبد في هذه الدنيا تنتابه الهموم والأحزان، وتحل به المصائب والنكبات، وهو مع ذلك يعرف من نفسه الضعف والعجز، فما لم يكن عنده ركن وثيق يلوذ به، ويعتمد عليه ويحتمي بحماه، فإنه سيتقطع قلبه حسرات على ما فاته أو ما أصابه، وسيظل يسعى لاهثاً خلف رغباته مشتت القلب عرياً عن التوفيق، فإن حيل بينه وبين مطلوبه تحسر على فواته وحزن، إن حصل على مطلوبه خاف سلبه منه، وأهمه ذلك، فهو في الحالين عليل الفؤاد، يدور بين الهموم والأحزان.

إن الإيمان والتوكل يسكب في القلب برد الطمأنينة، ويدخل صاحبه في جنة الدنيا، فشعار المؤمن ﴿ قُل

لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[التوبة: ٥١].

وما يعيشه كثير من الناس اليوم من قلق وآلام نفسية، وفقدان للسعادة من أعظم أسبابه ضعف محبة الله والتوكل عليه في نفوسهم.

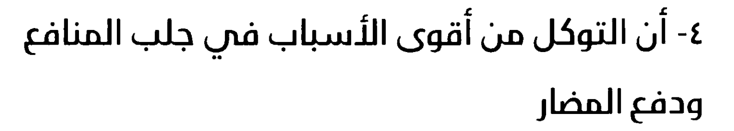
يقول ابن القيم: (وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -قدس الله روحه- يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

وقال بعض المحبين: مساكين أهل الدنيا، خرجوا من الدنيا، وما ذاقوا أطيب مافيها قالوا: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه)[1].

٣- كفاية الله المتوكل:

لقوله: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾أي كافيه وقد تقدم الكلام على ذلك.

١- تهذيب مدارج السالكين (ص/ ٢٤٥) .



٤- أن التوكل من أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار

وهذا متفرع من الثمرة السابقة. يقول ابن القيم: (ومن كان الله كافيه فلا مطمع فيه لعدوه ولا يضره إلا أذى)[1].

٥- أن التوكل يورث قوة القلب وشجاعته وثباته:

وقد روي مرفوعاً: (من أحب أن يكون أقوى الناس، فليتوكل على الله)[2]. ولا عجب، فالمتوكل مستند إلى قوة الله العزيز القوي، وقد وعد المتوكلين عليه بالكفاية، وهو أصدق القائلين، ومن ثم فالمتوكلون لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

يقول تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم

١- التفسير القيم (ص/ ٥٨٧).

٢- أخرجه الحاكم في المستدرك ٤/ ٢٧٠، وابن أبي الدنيا في كتابه: التوكل على الله (ح٩ ص٤٤)، وضعفه العراقي في تخريج الإحياء ٤/ ٢٤٤.

مَرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٤٩].

يقول ابن سعدي: (إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض) أي شك وشبهة من ضعفاء الإيمان للمؤمنين حين أقدموا مع قلتهم على قتال المشركين مع كثرتهم (غر هؤلاء دينهم) أي أوردهم الدين الذي هم عليه هذه الموارد، والتي لا يدان لهم بها، ولا استطاعة لهم بها. يقولونه احتقاراً لهم، واستخفافاً لعقولهم، وهم والله الأخفاء عقولاً الضعفاء أحلاماً.

فإن الإيمان يوجب لصاحبه الإقدام على الأمور الهائلة التي لا يقدم عليها الجيوش العظام، فإن المؤمن المتوكل على الله الذي يعلم أنه لا حول ولا قوة ولا استطاعة لأحد إلا بالله تعالى، وأن الخلق لو اجتمعوا على أن يضروه لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، وعلم أنه على الحق، وأن الله تعالى حكيم رحيم في كل ما قدره وقضاه، فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من قوة وكثرة، وكان واثقاً بربه مطمئن القلب لا فزعاً ولا جباناً؛ ولهذا قال:

(فإن الله عزيز) لا يغالب قوته قوة (حكيم) فيما قضاه وأجراه)[1] وقد تقدم في الكلام على مجالات التوكل شواهد على ذلك.

٦- من ثمرات التوكل على الله أنه سبب في حصول الرزق

إن قضية الرِّزق تشغل قلوب كثير من الناس، وربما سلك بعضهم في تحصيله طرقاً محرمة أو مشتبهة. وربما اعتلت الأجسام فضلاً عن القلوب بالهموم والأحزان من أجل هذه القضية، فترى الرجل ينوء بهموم رزقه ورزق أبنائه، في الحال والمستقبل حتى يشتغل بذلك عن هموم الدار الآخرة، ويقلق في الدنيا، فلا هو عمل لآخرته، ولا هو سعد في دنياه. وإذا تذكر المؤمن أن الله تكفل برزق كل مخلوق، وأنه جعل من أعظم أسباب تحصيل هذا الرزق التقوى والتوكل عليه، فإن هذه القضية تهون عنده، فيصير

١- تفسير ابن سعدي (ص/ ٣٩١) .

همه الأكبر متعلقًا بالآخرة، ويأتيه رزقه في الدنيا من حيث لا يحتسب. وليتأمل المؤمن نصوص الوحيين في تقرير هذا المعنى.

يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الآيات ٥٩-٦٢: العنكبوت].

ومعنى لا تحمل رزقها أي لا تطيق جمعه وتحصيله، ولا تدخر شيئاً لغد، لضعفها[1].

ويقول سبحانه: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم

١- انظر تفسير ابن كثير (١٠/ ٥٢٦).

كما يرزق الطير، تغدوا خماصاً، وتروح بطاناً)[1].

وعن أنس مرفوعاً: (من كانت الآخرة همه، جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه، جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له)[2].

وقد جاء في القرآن أن (الخليل ﷺ قال: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

فالعبد لابد له من رزق ، فإذا طلب رزقه من الله صار عبداً لله فقيراً إليه . وإن طلب رزقه من مخلوق صار عبداً لذلك المخلوق فقيراً إليه)[3].

وتقديم (عند الله) يشعر بالاختصاص والحصر، كأنه

١- أخرجه الترمذي (ح/ ٢٣٤٤)، وأحمد (ح/ ٢٠٥)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح. ومعنى الحديث: أنها تذهب أول النهار جياعًا، وترجع شباعًا (انظر تحفة الأحوذي: (٧/ ٨-٩)

٢- أخرجه الترمذي (٢٤٦٥) وصححه الألباني .

٣- مجموع الفتاوى ١١/ ١٨٢ .

قال : لا تبتغوا الرزق إلا عنده[1].

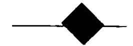
وقد ذكر ابن كثير في تاريخه أن عمر بن عبد العزيز قيل له في مرض موته: هؤلاء بنوك -وكانوا اثني عشر- ألا توصي لهم بشيء؛ فإنهم فقراء؟. فقال: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦] هم بين رجلين: إما صالح، فالله يتولى الصالحين، وإما غير صالح، فما كنت لأعينه على فسقه، ثم نقل ابن كثير عن راوي الخبر قوله: (فلقد رأينا بعض أولاد عمر ابن عبد العزيز يحمل على ثمانين فرساً في سبيل الله، وكان بعض أولاد سليمان بن عبد الملك - مع كثرة ما ترك لهم من الأموال - يتعاطى ويسأل من أولاد عمر بن عبد العزيز؛ لأن عمر وَكَل ولده إلى الله عز وجل، وسليمان وغيره إنما يكلون أولادهم إلى ما يدعون لهم من الأموال الفانية فيضيعون، وتذهب أموالهم في شهوات أولادهم)[2].

وأما إبراهيم النخعي فقد جاءه أكثر من عشرين ألف

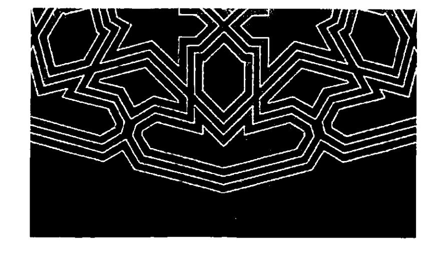
١- مجموع الفتاوى ١١/ ١٨٣ .

٢- البداية والنهاية (١٢/ ٧١٥) .

درهم فتصدق بها جميعاً، فقيل له: لو ادخرت منها لولدك، فقال: لقد ادخرتها لنفسي، وادخرت الله لولدي، فاستجاب الله لحسن ظنه، فكان الثراء والسعادة في ولده[1].



١- انظر نوادر من التاريخ (٢/ ٧٣).



المبحث العاشر

من قصص المتوكلين

توكل إبراهيم عليه السلام

كان إبراهيم عليه السلام عظيم التوكل على الله، في مطالب الدنيا والآخرة، وذلك ليقينه بأن أمره كله بيد ربه ومولاه، فهو يقول عن ربه ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾[الشعراء: ٧٨ - ٨٢].

وقد ابتلاه ربه بأوامر ونواه، فكان مستعيناً بربه متوكلاً عليه، فقام بما كلف به خير قيام ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾[البقرة: ١٢٤].

لقد تبرأ إبراهيم من قومه الذين هم سنده في المقاييس الدنيوية لما كفروا بالله، لأن له سنداً لا يقوم أمامه شيء.

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[الممتحنة: ٤].

ومما ابتلي به أنه حاجَّ النمرود الذي بيده الملك حتى أبهته، ولما أمر بالهجرة من وطنه، هاجر واثقاً في هداية ربه ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾[الصافات: ٩٩].

ولما ابتلي بالقذف في النار كان التوكل على الله لباسه، يقول ابن عباس: (حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم حين ألقي في النار).

ثم ابتلي بأمر الله إياه بإسكان زوجته هاجر وابنه الرضيع بواد غير زرع. ففي صحيح البخاري عن ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام جاء بزوجته (وبابنها إسماعيل، وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت... وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقاً،فتبعته

أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت، فانطلق إبراهيم، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الدعوات، ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧][1].

ثم لما شب ابنه إسماعيل، وبلغ معه السعي أي: صار يذهب مع أبيه ويمشي معه، وحينئذ يكون الوالد أكثر تعلقاً بولده ابتلي بالأمر بذبحه، فامتثل أمر ربه متوكلاً عليه ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾[الصافات: ١٠٣ - ١٠٧].

١- صحيح البخاري (ح/ ٣٣٦٤).

توكل هود ونوح عليهما السلام

أرسل هود عليه السلام إلى قبيلة عاد، وكان لهم قوة عظيمة، مما حملهم على الاغترار بما حباهم ربهم ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت: ١٥]، فكانوا ذوي بطش شديد بمن خالفهم، فعاب هود عليهم ذلك ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾[الشعراء: ١٣٠].

ولنتأمل بعد هذا ما كان من هود معهم، فبعد أن دعاهم إلى التوبة والاستغفار ردوا عليه: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[هود: ٥٣ - ٥٦].

إنه لعجب أن يقف هود من عاد هذا الموقف!! وما

أدراك ما عاد؟ إنها (التي لم يخلق مثلها في البلاد).

إنه تحدٍ سافر لقوة متجبرة، من فرد أعزل، ليس لديه من مقومات القوة في النظر المادي شيء، لكن العجب يزول حينما أبان عن سر قوته وثباته، إنه التوكل على الله!! الذي يتضمن الثقة بكلاءته والاعتصام بجنابه.

وقبل إبراهيم وهود قص الله علينا نبأ نوح عليه السلام ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾[يونس: ٧١].

ولقد أخبرنا الله أن لنا في أولئك الأنبياء ومن معهم من المؤمنين أسوة حسنة، لا سيما خلفاء الأنبياء من العلماء والدعاة إلى الله حينما يواجهون قوى الطغيان.

توكل نبينا محمد ﷺ:

وأما نبينا ﷺ فإن من أسمائه المتوكل، كما جاء عن عبد الله بن عمرو وعبد الله بن سلام قالا: (والله إنه لموصوف في

التوراة ببعض صفته في القرآن ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾[الأحزاب: ٤٥]. وحرزًا للأميين أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل...)[1].

وسيرته العطرة حافلة بالمواقف الإيمانية التي تبين عن عظيم توكله على ربه.

لقد أمره الله أن يتحدى المشركين بما تحدى به نوح وهود ﴿ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾[الأعراف: ١٩٥ - ١٩٦].

ومن مواقف توكله ما كان في الهجرة، فعن أبي بكر رضي الله عنه قال: قلت للنبي ﷺ وأنا في الغار: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: (ما ظنك باثنين الله ثالثهما)[2]وقد أشاد الله بهذا في قوله:﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ

١- أخرجه البخاري (ح/ ٢١٢٥).

٢- أخرجه البخاري (ح/ ٣٤٥٣)، ومسلم (ح/ ٢٣٨١).

﴿يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[التوبة: ٤٠].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا:﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣][1].

ومن مواقف توكله هو وأصحابه رضي الله عنهم ما جاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[آل عمران: ١٧٢ - ١٧٤].

لما رجع النبي ﷺ من أحد إلى المدينة وقد أصابه وأصحابه القرح، وكان في المدينة المنافقون الشامتون، واليهود الحاقدون،وحولها المشركون المتربصون، وسمع أن أبا

١- أخرجه البخاري (ح/ ٤٥٦٣).

سفيان ومن معه من المشركين قد هموا بالرجوع إلى المدينة، ندب أصحابه إلى الخروج، فخرجوا على ما بهم من الجراح استجابة لله ولرسوله، فوصلوا إلى حمراء الأسد، وجاءهم من قال لهم: (إن الناس قد جمعوا لكم) وهموا باستئصالكم تخويفاً لهم وترهيباً، فلم يزدهم ذلك إلا إيماناً بالله وتوكلاً عليه (وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل).

وفي قصة الأحزاب التي نزلت فيها سورة من القرآن تحكي مواقفها عبرة وعظة.

لقد استفتحت السورة بخطاب للنبي ﷺ تضمن قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾[الأحزاب: ٣].

ثم جاء وصف الموقف الذي عاشه رسول الله ﷺ والمؤمنون ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[الأحزاب: ٩-١١].

وما بعدها من آيات.

وفي هذا الموقف الرهيب الذي تنخلع له القلوب، كان رسول الله ﷺ قدوة عظيمة في الثبات والتوكل والثقة بموعود الله، وصدق اللجأ إليه، فقام يتضرع إلى ربه، ويدعوه، وهو في محنة الحصار: (اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم)[1]. ولذا قال ربه المطلع على قلبه في سياق تلك الآيات: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وأثر موقف القدوة في أصحابه ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾[الأحزاب: ٢٢].

وكانت النتيجة السعيدة ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾[الأحزاب: ٢٥].

توكل أهل الكهف:

قص ربنا علينا قصتهم، وفيها أنهم فتية آمنوا بالله وقومهم

١- أخرجه مسلم (ح ١٧٤٢).

مشركون لو ظفروا بهم، لقتلوهم بالحجارة إن لم يرجعوا إلى ملة الكفر.

فلجأوا إلى الله متضرعين ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾[الكهف: ١٠].

وتوكلوا عليه موقنين ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾[الكهف: ١٦].

(والمعنى أن بعضهم قال لبعض: إذا فارقنا الكفار، فلنجعل الكهف لنا مأوى، ونتكل على الله، فهو يرحمنا ويرفق بنا)[١].

وذكر المفسرون أنهم كانوا من أبناء الملوك والسادة[٢]، ولذا قالوا: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾[الكهف: ١٩] أي أطيبه.

ومع ما كانوا فيه من النعيم إلا أنهم فروا من فتنة الكفر

١- التسهيل لابن جزي (١/ ٥٠٤).

٢- المصباح المنير في اختصار تفسير ابن كثير (ص/ ٧٩٤).

بدينهم من القصور إلى الكهف، حيث لا شيء سوى رحمة الله ولطفه.

وقد تجلت كفاية الله لهم ورحمته بهم:

- فحفظ دينهم، ورزقهم الطمأنينة في تلك الحالة المزعجة ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾[الكهف: ١٣ - ١٤].

- وحفظ أبدانهم، وسخر لهم ما شاء من خلقه ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾[الكهف: ١٧ - ١٨].

قال ابن سعدي: (فجمعوا بين التبري من حولهم وقوتهم،

والالتجاء إلى الله في صلاح أمرهم ودعائه بذلك، وبين الثقة بالله أنه سيفعل ذلك.

لا جرم أن الله نشر لهم من رحمته، وهيأ لهم من أمرهم مرفقاً، فحفظ أديانهم وأبدانهم، وجعلهم من آياته على خلقه، ونشر لهم من الثناء الحسن ما هو من رحمته بهم، ويسر لهم كل سبب، حتى المحل الذي ناموا فيه كان على غاية ما يمكن من الصيانة)[1]. وحفظهم من الشمس فيسر لهم الكهف، إذا طلعت الشمس تميل عنه يميناً، وعند غروبها تميل عنه شمالاً، فلا ينالهم حرها فتفسد أبدانهم، وهم في متسع من الكهف ليطرقهم الهواء والنسيم. ويزول عنهم الوخم والتأذي، ويحسبهم الناظر أيقاظاً؛ لأن عيونهم مفتوحة لئلا تفسد، ويقلبهم ربهم؛ لئلا تفسد الأرض أجسامهم، وكلبهم الذي يحرسهم أصابه النوم معهم، وهو باسط ذراعيه بباب الغار؛ لئلا يمنع دخول الملائكة غارهم، وحفظهم أيضاً من الآدميين بالرعب الذي نشره عليهم[2].

١- تفسير ابن سعدي (ص/ ٤٧٢).

٢- انظر المصدر السابق.

ومن عظيم رحمته بهم أن رفع قدرهم، وجعلهم آية للناس، وأبقى ذكرهم في كتابه العزيز، وكفى بذلك شرفاً.

قصص من السنة:

وأختم هذه القصص بذكر ثلاث قصص جاءت في السنة لامرأتين ورجل وثقوا بربهم فما أخلف الله ظنهم.

عن حميد (يعني ابن هلال) قال: كان رجل من الطفاوة طريقه علينا، فأتى على الحي، فحدثهم، قال: قدمت المدينة في عير لنا، فبعنا بياعتنا، ثم قلت: لأنطلقن إلى هذا الرجل فلآتين من بعدي بخبره، قال: فانتهيت إلى رسول الله ﷺ، فإذا هو يريني بيتا، قال: «إن امرأة كانت فيه فخرجت في سرية من المسلمين، وتركت ثنتي عشرة عنزًا لها، وصيصيتها كانت تنسج بها»، قال: «ففقدت عنزًا من غنمها، وصيصيتها، فقالت: يا رب إنك قد ضمنت لمن خرج في سبيلك أن تحفظ عليه، وإني قد فقدت عنزًا من غنمي، وصيصيتي، وإني أنشدك عنزي، وصيصيتي»، قال: فجعل رسول الله ﷺ يذكر شدة مناشدتها لربها

تبارك وتعالى، قال رسول الله ﷺ: «فأصبحت عنزها ومثلها، وصيصيتها ومثلها، وهاتيك فأتها فاسألها إن شئت»[1].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (بينما رجل وامرأة له في السلف الخالي، لا يقدران على شيء، فجاء الرجل من سفره فدخل على امرأته جائعا، قد أصابته مسغبة شديدة، فقال: لامرأته: عندك شيء؟قالت: نعم، أبشر أتاك رزق الله، فاستحثها. فقال: ويحك ابتغي إن كان عندك شيء. قالت: نعم هنيهة نرجو رحمة الله، حتى إذا طال عليه الطول. قال: ويحك قومي فابتغي إن كان عندك خبز فأتيني به، فإني قد أبلغت وجهدت.فقالت: نعم، الآن ينضج التنور، فلا تعجل.

فلما أن سكت عنها، وتحينت أن يقول لها، قالت هي من عند نفسها: لو قمت فنظرت إلى تنوري، فقامت فوجدت تنورها ملآن من جنوب الغنم، ورحاها تطحن، فقامت

١- أخرجه أحمد (٢٠٦٤١)، وهو في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢٩٣٥).

إلى الرحى فنفضتها، واستخرجت ما في تنورها من جنوب الغنم .قال أبو هريرة: فوالذي نفس أبي القاسم بيده، عن قول محمد ﷺ: لو أخذت ما في رحيتها ولم تنفضها لطحنت إلى يوم القيامة)[1].

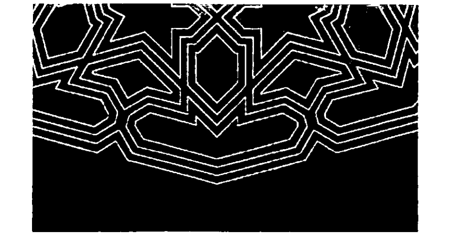
وعن أبي هريرة ﷺ عنه عن رسول الله ﷺ: (أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل ، سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بالشهداء أشهدهم، فقال: كفى بالله شهيدا. قال: فائتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلا. قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر، فقضى حاجته، ثم التمس مركباً يركبها يقدم عليه للأجل الذي أجله، فلم يجد مركباً، فأخذ خشبة، فنقرها فأدخل فيها ألف دينار، وكتب صحيفة منه إلى صاحبه من فلان إلى فلان، ثم زجج موضعها، ثم أتى بها البحر، فقال: اللهم، إنك تعلم أني كنت تسلفت فلاناً ألف دينار،

١- أخرجه أحمد (ح/ ٩٤٦٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (ح/ ١٣٣٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله وثقوا (١٠/ ٢٥٧).

فسألني كفيلاً، فقلت: كفى بالله كفيلاً، فرضي بك، وسألني شهيداً، فقلت : كفى بالله شهيداً، فرضي بك، وإني جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه الذي له، فلم أقدر، وإني أستودعكها، فرمى بها في البحر، حتى ولجت فيه، ثم انصرف، وهو في ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر، لعل مركباً قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما نشرها، وجد المال والصحيفة،ثم قدم الذي كان أسلفه، فأتى بألف دينار، فقال: والله مازلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك، فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه. قال: هل كنت بعثت إلي بشيء؟ قال: أخبرك أني لم أجد مركباً قبل الذي جئت فيه. قال: فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت في الخشبة، فانصرف بالألف الدينار راشدا)[1].

---

١ - الحديث رواه البخاري معلقا، ووصله مختصرا، وهو في مختصر صحيح البخاري للألباني٢/ ٩٧،٩٨ .



الخاتمة

الدرجات العالية والمغفرة والرزق الكريم مطالب عليا تتشوف لها نفوس المؤمنين، وتتسابق إليها همم العاملين.

فكيف إذا كان ذلك عند الرب الكريم الرحيم.

إن سبيل الوصول إلى ذلك الثواب هو الإيمان الحق لا إيمان التحلي والتمني.

إذن فما صفات المؤمنين حقاً؟

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤]

لقد بدأ الله في صفاتهم بذكر أعمال القلوب وجلاً عند ذكر الله، وزيادة إيمان عندما يتلى كلام الله، وتوكلاً على الله.

وهذا التقديم لأن أعمال القلوب أصل لأعمال الجوارح، وأفضل منها[1].

إنه لعجب بعد هذا البيان وذلك الترغيب أن ينقضي العمر ولم يذق المؤمن حقيقة الإيمان.

ولكن زينة الدنيا وعوائدها تحول بين القلوب وتقواها، فلا يحسن العبد العمل، وينشغل بالتفاهات والحظوظ العاجلة عن الفوز العظيم والنعيم المقيم.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ ﴾ [الكهف: ٧]

وحينئذٍ يوعظ فلا يتعظ، ويسمع ولا يتدبر، ويرى فلا يتفكر.

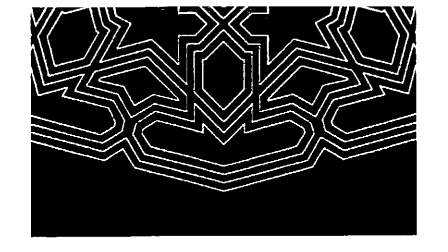
﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ۝٢٠ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٢١ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝٢٢ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ

١- تفسير ابن السعدي ص٣١٥.

لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

[الأنفال: ٢٠ - ٢٤]

اللهم ارزقنا الإيمان الحق والقلوب السليمة، واجعلنا مستجيبين لأمرك وأمر رسولك، اللهم ارزقنا صدق التوكل عليك، وحسن الظن بك، واجعلنا هداة مهتدين، والحمد لله رب العالمين.



فهرس الموضوعات



